رواية

اِنــزلاق...

محمد علي

اسم العمل: انزلاق / رواية

الكاتب: محمد علي

رقم الايداع : 2018/25162

الترقيم الدولي: 978- 977- 6056- 94- 7

التصحيح اللغوي والتنسيق الداخلي الكاتبة والروائية: هنـاء عودة

تصميم الغلاف: لينا شاهين

- -

شهرزاد للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

القاهرة

هاتف: 01091744511

shahrazadpub@gmail.com

- -

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

اِنــــزلاق...

كالعادة، بدأ الناس يستمعون إلى نشرة أخبار الجيران، نشرة دائمة وإن كانت غير محددة الميعاد، ولا يجوز أن يحدد ميعاد لبث المشاكل على الملأ، فقد كانت مشاكلهم تأتي مسترسلة في كل الأوقات وبمختلف الظروف، وفقط تختلف في حدتها وأسبابها، تارة من أجل تأخير الطعام، وأخرى بسبب قلة ما يعطيه لها من مال في ظل الغلاء الذي اقضّ مضاجع معظم فئات الشعب، وجعل الناس يكلمون أنفسهم في لوثة من الجنون، بعدما تضاعفت تكلفة كل شيء في فترة وجيزة.
كانت العصبية والندية تسيطر على حياتهما، وتحيل الخلافات الصغيرة إلى مشاجرات كبيرة وصراعات مريرة، أو تترك رواسب في نفوسهما لا يتركاها دون الاستناد إليها أو الاعتماد عليها في الخلافات القادمة، وقد ركّب كلا منهما منفاخا في فمه يبث منه هواءً جافا حارا يصطدم بنيران الاحتقان والتنافر فينشأ معارك ضارية وحروبا ضروس لا تحتمل الحوائط والأبواب صد الأصوات المنبعثة عنها، فتخرج للناس معلنة عن مشكلةٍ جديدة ومشاجرة أخرى.

كان أحمد جالسا يقرأ حين بدأ صوت الجيران يرتفع، يفضل أحمد القراءة صباحاً، حيث دائما ما يقول إنه بذلك - القراءة صباحاً - يفعل أفضل عمل في أفضل وقت، قبل أن ينزل إلى الشارع، ويصطدم بمعكرات الصفو الثابتة، من ناس وأخبار ومواقف وصخب.
وعندما أرتفع صوت الجيران ووصل إليه من نافذة غرفته، هم بالنهوض ليغير ملابسه ويذهب إلى الجامعة، وخرج خفيف الخطى يكاد لا يعرف أحد، ويكاد لا يراه أحد.

كان أحمد شابا هادئا، مبتسم دائما، لا تكاد تشعر بوجوده، طويل القامة قمحي اللون أمرد ذو عينين صافيتين وأنف دقيق، خفيف الظل قوى الفكر عذب الحديث عميق الأفكار ذو نزعة صوفية وتأملية.

وصل عماد إلي الجامعة بعدما فقد هدوءه في زحام خانق، ألتقى أمام البوابة بسلا، ابنة خالته، الفتاة الرقيقة والتي تشترك معه في أنها ثورية الأفكار، فقد كانت مثله قارئة نهمة، رغم أنه كان يعيب عليها كثرة قراءتها في الأدب الرومانسي الذي لا يحبذه، إلا أنه كان يقدّر أنها تقرأ وعلى قدر جيد من الثقافة، وكان يقول لها: إن قصص الحب التي تفشل في الحياة، تنجح في الورق، وهذا ما يجعل إقبال الشباب على الروايات الرومانسية الركيكة كبير، فهم يطلبون الحب والعاطفة مكتوبة على الورق تعويضا عن ممارسة الحب في الحياة.

وحين إقترب منها قال بإبتسامة: كيف حالك يا سلا؟

لم يمهلها الوقت لتجيب، إذ بادرها بسؤال آخر وهو يغمز بعينيه: وما هي أخبار العريس؟

تنهدت قائلة: لن يكون هناك عريس؟

سألها بسرعة وعلامات الدهشة ترتسم على وجهه: لماذا؟

قالت وقد أخفضت وجهها: لم يعجب والدي كونه مازال طالبا، وليس لديه شقة جاهزة وإلى آخره من هذه الأسطوانات المحفوظة.

فقال بحنو وهو يحاول أن يسرّى عنها: والدك لديه كل الحق في ذلك.

سكت هنيهة ثم تساءل: ولكن لماذا يتقدم الآن وهو بمثل هذه الظروف؟

أجابت ممتعضة: لأنني أخبرته أن خالد ابن عمِ يود أن يتزوجني، ولمّح إلى وإلى أبي بذلك. ابتسم ابتسامَة سخرية وقال: آه نفس المعضلة الحبيب غير جاهز، وهناك من يطرق الباب وهو قادر على أن ينهي الموضوع بسرعة.

أغمضت عينيها وتجعدت أساريرها بفعل الآسى وقالت: إن أبي مصّر على زواجي من خالد، ويخشى أن يرفض فيغضب منه باقي أفراد العائلة، وأنا لا أشعر تجاه خالد بأي شيء، ولا أعتقد أننا سنتوافق روحيا ونفسيا.
واصلت بلهجة المغلوب على أمره: أتعرف إن عادات الزواج في مصر قائمة على مبدأ إن الحلال لمن يدفع لا لمن يحب.
سكتت .... ثم تساءلت غاضبة: لماذا لا تتكلم؟
أجاب بلهجة متحيرة: ماذا أقول يا سلا، هذا الوضع البائس لا مجال لتغييره سوى بتغيير الناس، وأصعب شيء في الوجود تغيير بشر أصاب عقلهم العته الفكري.
إرتفع صوتها قليلاً: قل لي ماذا افعل؟ هل أرض بذلك؟ هو لا يتفق معي في شيء.
قال بصوت من يريد المواساة: ستحبينه، كثيرا ما يأتي الحب بعد الزواج. ثم إن خالد طيب، وأحمد ظروفه سيئة ولا تسمح بزواج قريب و.....
قاطعته مستنكرة: الحب ابن التفاهم يا عماد، ثم إنك الآن تحولت إلى خالتك.
سرح عماد لحظة في أبويه دائمي الخناق والمشاكل على أتفه الأسباب بسبب عدم وجود وفاق بينهم.

نظر في عينيها دون أن يراها ونطق عقله دون لسانه : التفاهم هي السمة الأهم التي يحتاجها البشر لكي يتعايشوا، فلا حب بدون تفاهم إن لم يكن روحي فهو تفاهم عقلي، والكثير من المشاكل الزوجية تحدث بسبب عدم التفاهم وعدم التقبل بين الأزواج وليس عدم الحب.

فيم تفكر؟ سألته مندهشة

أجاب: أفكر في التفاهم الذي ينبغي أن يكون بين الأزواج.

قالت موافقة: نعم يا عماد هذا هو لب الموضوع، أنا أقارن بين أحمد وخالد في الشخصية، في الآراء، حتى في الأغاني التي يسمعها كلاهما، والأحاديث التي يتحدث فيها كليهما فلا أجد.....

قاطعها قائلا: لا تكملي، المقارنة تفسد كل شيء.

قالت: أنا لا أقلل منه، ولكن لكل واحدا منا شبيه له، لا يحتمل جمع الهدوء والصخب، النظام والفوضى، المادي والروحي معا، ثم حينما تأتي المشاكل نلقي باللوم على الأسلوب أو الغضب والعصبية، أو أي أسباب أخرى.

لقد تعبت يا عماد مِن شرح ذلك لأمي وأبي، هم يريدون سعادتي ولا يظنون السعادة سوى بالفلوس والغنى المادي، وأنت تعرف خالتك.

تنهدت ثم استأذنته في الانصراف عندما رأت أحمد ينتظرها أمام أحد مدرجات كلية التجارة.

****

بادرته سلا بالسؤال عن أحواله، فأجاب أنه ليس بخير وواصل بتهكم: ومن المؤكد أنك تعرفين السبب.
أحست أنه يلقى باللائمة عليها، فنظرت إليه نظرة استعطاف نزلت عليه كنزول قطعة الثلج على النار فأطفأت ما يعتمل بداخله من نيران.
قال حزينا: لقد قال لي والدك جملة لن أنساها، قال كيف تتوقع أن أعطيك ابنتي لمجرد حصولك على شهادة جامعية، وأن الحب ليس أهم مقومات الزواج، بل إنه آخرها، وواصل العبث بحلمهما قائلا: يكون لديك شقة فاخرة جاهزة ومؤثثة بأثاث فاخر في مكان راقي كشقة أختِك الكبيرة في مصر الجديدة، وأن أكون مستقرا في عمل يكفل لكي المعيشة في نفس المستوى ثم بعد ذلك أتقدم.
سكت لحظة ثم واصل متعجبا: كيف يريد أن أعيشك في نفس مستواه المعيشي، ذلك المستوى الذي وصل إليه بعد عناء عشرين عاما، يريد أن أبدأ أنا منه، إذا أمامنا عشر سنوات على الأقل.
ثم واصل: لقد انهال على بالأسئلة المحرجة والإجابة دائما بلا، لا عمل مضمون، لا شقة خاصة، لا نفس مستوى المعيشة وغيره.
أطرقت هي تضحك ضحكة آسى وتذكرت كيف صرخت فيها والدتها: هل جننتِ؟، هل تتركي إبن عمك الثرى وتقبلين بهذا المسكين، ستذوقين المر والحرمان، فالحب وحده لا يقيم البيت، وهذا الحب سيفر من الباب وسيقفز من الشباك مع هذا الفقر، وكل هذا بسبب الكتب التي لحست عقلك.
قالت بغنج غامزة بعينيها كمن تريد تلطيف الأمور:

- ألن تستطيع الصبر يا روحي
أجاب متهكما: قريبك هو الذي لن يصبر
أجابت ساخطة: أنا لن أوافق عليه، وسأظل في انتظارك
رفع عينه في عينيها وحدق بها..
فهمت النظرة وقالت غاضبة مستنكرة: لماذا تنظر إلي هكذا؟ أغير مصدق أنت؟
أجاب مبتسما: لا
سألته سريعا: لا ماذا؟
أجاب ضاحكا بعدما هز رأسه مفكرا: لا، ُمصدِق!
ثم واصل حديثه جادا: ولكن جميع الظروف ضدنا
بالحب نحارب كل الظروف وننتصر - أجابت في حماس-
قال متسائلا: وإن لم ننتصر
قالت بحزم: نموت في سبيل هدفنا
الموت يعنى الفشل - رد ساخرا-
أجابت: بل العكس، الموت قمة النجاح
سألها متعجبا: كيف يا فيلسوفة؟ أجابت شارحة: مبدئيا الموت عدم انتصار الطرفين، ثم واصلت بحماس ولكن يبقى الانتصار في عدم قهرهم لنا
سأل مستهزئا: وما قيمة الانتصار وأنتِ ميّتة؟
قالت مستنكرة من عدم فهمه ومن أسلوبه: قيمته في انتصار الفكرة!
فكر، ضحك، ضرب كفا بكف، ثم مشى وسارت خلفه ضاحكة.

صوت مرتفع مطعما ببعض ألفاظ الشتائم والسباب يدخل من الشباك، يقترب أحمد من شباك غرفته يعلم أن الصوت قادم من بيت الجيران دائمي الخناق فقال: يبدو أنهما يمارسان هوايتهم المفضلة في الخناق وافتعال المشاكل.
وتساءل في نفسه "لا أعلم لماذا تزوج هؤلاء الزوجين وهم ليسوا على قدر من الوفاق أو التفاهم الذي يسمح بالعيش مع الآخر"
منذ شهورهما الأولى في الزواج وهما يتشاجران ويرتفع صوتهما هكذا.
يسبها الزوج بألفاظ نابية، ويعلو سباب الزوجة التي تختم السبة بعبارة: وليست أمك بأفضل من أمي لكي تسبها.
ارتفع دوي كف هوى على وجهها وكأنه صاروخ ارتطم بطائرة فهشم أجنحتها حتى تسللت بعض قطرات الدم من فمها، بينما ينبثق صوت صراخ وبكاء طفولي.
مسكينة هذه الفتاة هي تعاني الآن أكثر من الاثنين سويا، وستظل تعاني من ذلك مدى الحياة، فالأطفال هم المتضرر الأكبر من كثرة المشاكل والخلافات بين الوالدين - قال أحمد متأثراً- .
وفي وصلة مباشرة من السباب والتهديد المتبادل بين الاثنين، قالت الزوجة بصوت مكتوم يحمل لوما وخجل: كل يوم خناق كل يوم خناق، الجيران صارت تتندر بنا وعلينا.
قال الرجل: عليك أن تخبري نفسك بذلك، لا أفعل شيء إلا ولا يعجبك، ولا أقول شيئا إلا وكان خطأ.
ردت عليه في حدة: وهل أفترى عليك، كلامك كله خطأ، وأفعالك جلها سيئة.

قال أحمد بصوت يغلبه التعجب: الاثنان يترصدان لبعضهما البعض؛ كل فرد منهما يريد أن يثبت أنه الأفضل عن طريق إثبات أن الآخر أسو منه، كم ستكون الحياة أجمل أن سعي كل فرد اثبات أنه الأفضل عن طريق تفوقه على الآخر، لا عن طريق إظهار عيوب غيره - هذه هي أخلاق المقص - لا انتصار إلا بهزيمة الآخر ولا نجاح إلا بفشل الآخر، ولا تظهر الحسنة فيك إلا بإبراز سيئة في الآخر، كمصارعي روما القديمة، لن يعيش المصارع إلا بقتل الأخر.

وغاص أحمد في أفكاره حتى حجبت الرؤية عن عينيه وصمّت آذانه "الحياة لا تسير إلا بالتغافل والتغاضي وتقبل اختلاف وعيوب الآخرين، ومن دون ذلك تصبح الحياة جحيم لا يطاق"

في حين قام الزوج بدفعها على الأرض وانقض عليها وطفق يكيل إليها الضربات كما تندفع أمواج النهر العاتية إلى قاربٍ صغير، لم تجد الزوجة مفر سوى بدفعه وركله ليبتعد عنها، وبكل قوتها ركلته، فاندفع إلى الخلف، ووقع على حرف أحد الكراسي، وبصوت مكتوم من شدة الألم صرخ مذعورا، أصيبت رأسه من الخلف، فشعر بألم كبير وكأنه ضرب بحربه، وضع يده على مكان الألم في الوقت الذي رأى بعض قطرات الدم على يده، دخل أحد الجيران وزوجته ليحضروا المشهد الأخير من مسرحية دائمة التكرار بنهايات مختلفة.

ثارت ثائرته، أمسكه الجار، وأخذت الجارة زوجته إلى بيتها حتى تهدأ ثورته، تقع الزوجة تحت طائلة اللوم والعتاب من الجيران، تشعر بالآسى، لن يفهمها أحد ولن يشعر بها أحد، قالت في نفسها: لا أحد سيفهم، ولا أحد يريد أن يفهم، هم لن يقتنعوا إلا بما رأت أعينهم.

تسرح تفكر ثم تقرر، الحقيقة دائما ما تكون صعبة المنال ولن يتوصل إليها إلا القلة القليلة، لم تذعن لكلام الجيران، تصر الزوجة على المغادرة، تأخذ ابنتها وتغادر في صمت إلى بيت أبيها.

******

استجاب الأب لضغط ابنته، كانت تقول لوالدها إن أحمد شاب ذكي ونشيط وينتظره مستقبل مبهر، وإنها على استعداد على تحمّل ظروفه، فقرر ممتعضا الجلوس ثانية معه، عله يرى هذا النشاط ويلمس ذلك الذكاء.

****

فاض الكيل بأحمد، بعدما وجد شقة وبإيجار مناسب بعض الشيء يناسب قدراته المالية، لكنها لم تعجب والدة من يفترض

بها أن تكون خطيبته، فالشقة صغيرة ولن تكفي العفش الذي أتت به لابنتها، فمازال بعض الناس يتخذ من أدوات كالملبس والبيت مكانا للتفاخر لا مكانا للإيواء.
قالت الأم ومن خلفها الأب، أن أخت سلا الكبرى تزوجت في شقة فاخرة في مصر الجديدة، بالإضافة إلى شبكتها التي تقدر بمبلغ وقدره الآن، وأنّ سلا ليست بأقل من أختها، وأنّ شقتها لا بدَّ أن تكون في مكان يليق بها كالمعادي أو الزمالك، شقة كبيرة تؤثث خمس غرف أو على الأقل أربع، فهي لن تكون أقل من أختها أو حتى ابنة عمتها بأي حال من الأحوال.
سكت محاولا كبح جماح غيظه، أخفق، رمق من كانت تجدر به أن تكون حماته بنظرة حقد واشمئزاز، نفخ ما في جوفه من نار وغيظ، فخرجت الكلمات مندفعة كطلقات مدفع تم شحذه كثيرا، وأحرق الهواء الجاف الذي خرج من فمه كل روابط التفاهم بينهما، نضح الكيل ببعض مما به، دخل أحمد معها في ملاسنة كادت أن تتحول إلى عراك، فسخت الخطبة التي لم تتم وقطعت كل الآمال بها.
لأجل البعض فقط تفسخ الخطبة فما بالك بالكل؟ - هكذا تساءل أحمد مع لأحد أصدقاءه-.

تلاقى عماد وسلا وكلاهما ترتسم على وجهه علامات توحي بعدم الرضا.
"صباح الخير، كيف حالك يا عماد ؟"- همست سلا-
الحمد لله- أجاب بفتور بعدما تنهد- .

- غير واضح، ما بك؟ تبدو مرهق أجابت بعد نظرة فاحصة على وجهه.
- لا شيء، بعض الضجر فقط - أجاب وعلامات الحنق تظهر على وجهه قبل لسانه
- ممن؟ تساءلت
- من الناس، من الحظ، من الظروف، من الحياة
سألته بود: هل مازال موضوع خطبتك متجمد في ثلاجة المطالب؟
أجاب متنهدا: نعم
سألته محاولة الخروج من هذه النقطة التي تجرحها شخصيا: - وكيف حال عملك؟
أجاب: لقد تركت عملي هذا الأسبوع
سألته مستنكرة: لماذا؟
أجاب: بأن هذا العمل لا يناسبه ويقل من كرامته كعادة معظم الشركات الخاصة.
سكت ثم زفر تنهيدة تحمل الغضب في داخلها ثم قال: الناس أصبحت لا تطاق، كل يوم تزداد الناس سوءا وتدهورا في القيم والأخلاق والمبادئ، بل كل يوم يهملون أكثر في واجباتهم ويطالبون أكثر بحقوقهم، أفكر جديا في السفر للخارج.
ثم ساد الصمت بينهما لحظات.
أرادت سلا من عماد أن يسألها عن سبب حزنها ولكنه لم يفعل.

الرجال غالبا لا يكتشفون هذه التغيرات الصغيرة بسهولة كما النساء، ولكنها ككل بنات جنسها أصرت على أن تخبره حتى من دون أن يسألها!

أتتذكر يا عماد أسماء؟، شدتّ أنتباهه بهذا السؤال وواصلت: البنت التي حولت إلى جماعة المنصورة.
بالطبع أتذكر، ماذا حل بها؟
توفت منذ يومين ودفنها أهلها هذا الصباح.
إن لله وإن إليه راجعون، لقد رحمها الله - قال بحزن- ثم سأل ولكن كيف؟
تزوجت زواجا عرفيا هناك من زميل لها، تقدم لها فرفضه أبوها كونه لا يستطيع الزواج الآن.
تمتم عماد: أغلق والدها الباب في وجه حبيبها وفتح عليها باب الشقاء.
أكمل متسائلا: ثم ماذا؟
ثم حملت في طفل، فتركها زوجها، وطلب منها أن تنزله حفاظا على سرية الزواج، فلم تستمع له، حاول إقناعها بأنّ في الكثير من الزيجات العرفية تجهض الزوجة نفسها حفاظا على السرية، فلم يستطع إقناعها، حاولت إقناعه بمواجهة المشكلة فلم تستطع، ثم أنجبت الطفل بعدما استقرت في مكانٍ ما بالمنصورة فلم يعترف به؛ فاضطرت إلى محاولة عمل إثبات بنوة، وبالفعل قامت بذلك، وتلاقت مع زوجها في الشقة التي كانا يتلاقيان بها، وتحادثا طويلا، حتى قالت له ماذا فعلت، فتشاجرا وضربها وشدها من شعرها حتى كادت فروة رأسها أن تنخلع في يديه، وبالتالي صرخت هي فخاف من افتضاح الأمر فكتم نفسها دون أن يعي كما قال حتى الموت.
أخذ الأب الولد وتركه في طريق عام وبالتحريات عثر عليهما واعترف الزوج بذلك.

همس عماد قائلا: القاتل ليس الزوج وحده، إن قاتل الفتاة الأول هو والداها، الذي رفض لم شمليهما معا فاضطرا لذلك.
تابع كلامه: إن الزواج العرفي منتشر جدا بين طبقات الشباب وخاصة في الجامعة، ألم تسمعي البرنامج الذي تحدث عن ذلك منذ فترة.
أصرت تتابع التلفاز - سألت سلا متعجبة-
أجاب ضاحكا؛ ألا قاتل الله التلفاز، تعرفين رأي في التلفاز ولن أغيره فهو المفسدة الأولى في هذا العصر، ولكن بين الحين والأخر أصادف شيئا يستحق المتابعة.
ولنعد إلى موضوعنا الكثير من المصائب تستشري في هذا البلد بسبب تصعيب الزواج، بالإضافة إلى كل ما نراه من انحلال، بالتالي تنتج هذه الكوارث وليس الزواج العرفي وحده هو من ينتج عن تصعيب الزواج على الشباب، بل هناك التحرش والاغتصاب وما خفي كان أعظم.
وهل هذا مبرر يا عماد؟ قالت سلا متعجبة
لا ليس هذا بمبرر - أجاب بسرعة نافيا-
صمت هنيهة ثم قال في تؤدة: ولكن تصعيب الحلال يعد تسهيلا للحرام.

****

مازالت سلا تتواصل مع أحمد، رغم مرور الوقت على قطع علاقتهما رسميا، ما زالا يتلاقيان بين صفحات مواقع التواصل

الاجتماعي، لم تكن المحادثات بينهما كما السابق، فما عادت تدوم لفترات طويلة، وما عادت مرحة تفوح حبا ولا جدلا أو لعبا كما السابق، كانت حوارات بسيطة عن كيف الحال والى أين تسير الأمور وما شابه ذلك من أسئلة وإجابات دوام الصحة والحال وحمد الله، أسئلة بغيضة وإجابات مقيتة، رسمية أكثر من اللازم، تشبه أحاديث المدير مع موظفيه.

كان أحمد يعرف أسماء، لأنها كانت تسكن في نفس الحي، وانزلق الحديث بينهما إلى هذه الحادثة، وتواصل بينهما الحديث لفترة، حتى دفع هذا الحديث أحمد إلى البحث عن موضوع الزواج العرفي في الجامعات، وصُدم صدمة كبيرة حينما قرأ أول مقال وقعت عليه يده، ثم واصل البحث والقراءة، فإذا الموضوع كبير جدا، حتى أنه أفضى ببعض مما قرأه لسلا قائلا لها: أنه قرأ أنّ هناك مئات الآلاف من الطلاب متزوجون زواجا عرفيا، وإنّ بعض الأرقام تقول أنّ حوالى 17%من الطلاب متزوجون زواجا عرفيا، وينتج عن هذا الزواج عشرات الآلاف من الأطفال مجهولي النسب، وأنّ ورقة الزواج العرفي تباع حاليا في المكتبات وكأنها ورقة - فولسكاب- ذلك أنّ الأهل تغالى كثيرا في المهور والطلبات التي تقسم ظهور الشباب، فطبيعي أن ينتج لدينا هذه الظاهرة وتستفحل في مجتمعنا، وختم كلامه بقوله: هذا المجتمع يستحق ذلك وأكثر.
فسألته متعجبة: لماذا ذلك؟
أجاب: لان هذا المجتمع يفعل كل ما هو خطأ، لذلك فهو يستحق كل ما هو خبيث.

****

كان أحمد في الشرفة يشاهد يوسف، طفل الجيران دائمي الخناق، وكان يوسف يعاني في صغره من التبول اللاإرادي وقضم الأظافر، وكانت الطبيبة تحذرهم من العنف والعصبية مع الطفل، فهي كل أسباب مشاكله واضطراباته النفسية.

بدأ الطفل الصغير يتعامل بعدوانية شديدة مع الأطفال الذين يلعب معهم في الشارع، أو حتى من يذهب معهم إلى للمدرسة، كان عمره سبع سنواتٍ، ولكنه كان أكثر عدوانية وعصبية من أقرانه من الأطفال، كانت عصبيته تكبر معه يوما فيوم وكأنه يتغذى على أقراص العصبية ومسحوق العدوانية، بل وامتدت عدوانيته نحو أخته الكبرى والتي تكبره بسنتين، كان يسبها وينهال عليها ركلا وصفعا كلما أغضبته، ويسبها ويعاملها بالطريقة التي يتعامل بها والده مع والدته كلما أغضبته.

كان أحمد ينظر إلى الطفل ويعلم ما يحتاجه وما يعانيه، فالعصبية الموجودة في البيت تنعكس على الأطفال، وبالتالي يكون الوالدان هما المحرك الأساسي لعصبية طفلهما، فالعنف والعدوانية التي تظهر في تعاملات بعض الآباء تنعكس على نفسية الطفل، ودائما ما يجد الأبناء في آبائهم القدوة والنموذج، وينطبع بوجدان الطفل ويرسخ بذهنه - لا شعوريا- ذلك الشكل وهذا الأسلوب، فما يراه في البيت لا يتزحزح عن عقله

وشخصيته، وكثيرا ما يتبني الطفل أفكار الأب وتنغرس في عقله الباطن حتى من دون أن يدركّ ذلك.
(أجمع اغلب مدخني الشيشة من المراهقين أنهم أعجبوا بمنظر آبائهم وهم يدخنون ويسعلون في رجولة مفتعلة)
ومن الممكن أن يظهر ذلك في سلوك الابن نحو زوجته مستقبلا، فمن خلال علاقة والدية تتشكل مفاهيمه وعلاقاته بالجنس الآخر، فهو يري كيف يعامل والده والدته، وكيف يتحدث معها، وكيف تدار الخلافات بينهما.

****

رجعت الجارة إلى بيت زوجها مغصوبة أسفه، قرر والدها أن يعيدها ويرجعها إلى بيت زوجها، وأراد منها أن تعتذر له.
ولكنها تمسكت بالرفض قائلة باستنكار:
يا أبى هذا التساهل الواضح منك هو الذي يساعده ويعينه على إيذائي، دون اعتبار أو تردد وكأني شيء يمتلكه كالثوب، وأنى دائما تحت المداس، لابد أن يشعر أنى أغلى من ذلك.
قال الأب بلهجة من يريد أن يضلل على ابنته وألا يخرّب بيتها بيده في أيامه الأخيرة:
يا ابنتي هل هناك سيدة تسب زوجها وتضربه وتصيبه في رأسه.
يا أبتِ وهل كنت أسبه إلا كما سبني.
قاطعها صائحا: لا توجد امرأة ترفع وجهها في وجه زوجها حتى إن سبها أو ضربها، وهذا الضرب مذكور في القرآن.
قالت وهي تضرب كفها بصدرها: وهل تفسرون القران كما يحلو لكم.
ثم أردفت: ثم أنا لم أضربه كنت أحاول دفعه عنى، فقد شرف على قتلى
أقر الوالد بإنتهاء الحوار قائلا: هي كلمة وإن لم تسمعيها يا زينب سأموت وأنا غضبان عليكِ.
أذعنت المسكينة لرغبة أبيها علنا، ولكن سرا سيطر التذمر والتمرد بداخلها، وأشعلا نيران الأنثى التي بها تكيد وتغلب الشيطان، فكانت تريد الطلاق خلاصا لها من هذا العذاب.

****

مات الوالد، الذي كان يحميها ولو قليلاً، وكان يأتي لها بحقها ولو نادرا، ومهما كان فإن الأب سندا لا يضاهيه سند، وصارت تلهث في العمل من أجل طفليها وابتعدت أكثر عن زوجها وأبتعد عنها أكثر حتى ضاق حالها وتدهورت شؤونها.

كانت فتاة خمرية اللون متوسطة الجمال لم تكن ذات جاذبية خاصة سوى عينين برّاقتين تضفي الكثير من الجمال على هيئتها النحيلة، كانت تحب أكرم، أحد جيرانها وزميلها منذ الصغر، وأبدي رغبته في أن يتقدم لها، ولكن الأم مزقت الفكرة مبكرا قائلة: إنه ليس لديه عمل ثابت يعتمد عليه، وأن تركه عمله لأكثر من مرة يدل على مدى فشله، وهكذا فُسخت خطبتها أو محاولة الخطبة.

ولأكثر من مرة ولعدم قدرة الخطيب المادية كانت محاولة خطبتها تمزق، فقد كانت والدتها تغالي في طلباتها حتى ابتعد العرسان عنها.
تخطت منتصف العشرينيات بقليل دخلت السياج المظلم المسمى بالعنوسة، ففي هذه المنطقة الريفية من الثالثة والعشرين دون زواج ينظرون للفتاة نظرة العانس، ومن يتقدم لها لا بدَّ أن يكون به عيبا ما.
تقدم لها ثروت، كانت إحدى جارتها هي من عرّفته عليها، سافر يعمل في دول الخليج من بضع سنين، والآن جاء ليستقر ويكمل نصف دينه، كان على مشارف الأربعينات بدأ الضعف يدب في جسده وعواطفه ومظهره، وهذا الفارق الكبير في السن قد يظهر في منتهى الحكمة بداية كما قالت أمها، فالرجل كلما

كبرعقل، أما بمرور الوقت اكتشفت أنّ هناك فاصل كبير وهوّة عظيمة بينهما، هوّة في الروح والنفس والرغبة والمظهر والجسد وقد تترك بظلها على حياتهما، وقد كان.
فبعد فترة ليست بالطويلة، بدأت زينب تشعر بهذه الفجوة تتسع بينهما، وطلبت من أهلها أن يساعدوها في التخلص من هذه الزيجة التعيسة، بدأ النفور والبغض والكراهية تؤثر عليها وتمنعها حتى من إعطائه حقوقه، بالطبع لم تخبرهم بكل شيء، كالعنف والضرب والسباب المتواصل، فاتهموها بسوء الخلق وقلة الحياء وأسرفوا في تحقيرها، وقالت الأم باستهزاء وهي تمصمص شفتيها برما، لقد تعبنا لكي نخرج من لقب عانس حتى ندخل في لقب مطلقة.
ولم تجد بد من أخبار أختها بكل شيء، حتى تكون لها عونا، وقالت لها أنه يهجرها كيفما يريد بحجة العقاب وتقصيرها في واجباتها تجاه البيت والأولاد أو زوجها، ويحتاجها وقتما يرغب، ويريد منها أن تكون في قمة المثالية والانصياع لرغباته، وليس من حقها الرفض وستلعنها الملائكة، أما حين تحتاجه ولا يرغب في ذلك فانه يهجرها بحجة العقاب لأنها ناشز فعلت خطأ ما، والسلبية الشديدة من قبل أهلها هي سبب معاناتها وأنه آمن سوء العاقبة من جانبهم فتعود الاجتراء عليها.
أما زوجها ثروت، فقد نشأ في بيت زاخر بالخلافات الزوجية والمشاحنات المستمرة بين الأب والأم، وقد لاقى عصبية شديدة في تعامل الوالد معه، وعانى كثيرا من الخوف الدائم والاضطرابات المستمرة من عصبية والده وتسلطه عليه وعقابه الشديد على أصغر الأخطاء، حتى إنّ أثر الضرب كان يترك علامات على جسمه، وخدوش في وجهه، والبحوث

التربوية كلها تثبت أنّ الطفل الذي نشأ على العقاب الشديدة والضرب والعنف يستخدم هذا العنف بالوراثة مع أبناءه ويسرف فيه، فيعمل ذلك على الإنحراف النفسي للأطفال ويجعلهم يعيشون الكره أكثر من الحب والنفور أكثر من الإحترام، وكان والده من هؤلاء الرجال قساه القلب، يعامل والدته أمامه بفظاعةشديدة، فكان يصفعها على وجهها بشدة حتى تسيل قطرات الدم من فمها ويدق رأسها في الحائط، وهي تخشى الفضيحة وتخاف الطلاق حرصا عليه وعلى أخوته.

****

إنفطر قلب أحمد، لأول مرة يشعر بالضعف، عندما علم أن أمنية حياته سيصل إليها غيره، لا لشيء سوى أنه يملك مالا أكثر منه.
وفي اليوم الذي كان يرغب فيه أحمد أن يكون يوم عرسه، قبل أن يتم فسخ خطبته الغير رسمية، قرر صديق له أن يدخله دنيا، وتساءل أحمد هازئا: كيف؟
فطمئنه صديقة الذي أعتاد هذه الفعلة: لا تقلق، ما كان يحتاج شقة وذهب وعفش وصداع وتآمر من حماه تريد تنغيص الحياة التي توشك أن تغادرها، لا يحتاج الآن سوى ساعة فارغة والقليل من المال والشقة موجودة، وكل شيء جاهز وبسيط، كبساطة وضع الخيط في ثقب الإبرة.
ثم واصل حديثه تحت نظرات أحمد المتساءلة: فلا أسهل الآن من العثور على امرأة، كما أن الخيانة الزوجية أصبحت لا

تحمل تلك الرهبة القديمة، فبعضهم من أجل المال، وبعضهم من أجل المتعة، وبعضهم من أجل الانتقام، وقليل منهم من أجل الحب، إنما هو فعل الخيانة يسير دائما في بنات حواء كما تسير في العروق الدماء.
أجابه أحمد ضاحكا وكلامه يقطر سخرية: وهل يخونون هؤلاء الزوجات أزواجهم إلا كما يخونهم أزواجهم، إنما هما جنسان، رجل، وامرأة، فإن ضعفت المرأة، ضعف الرجل، وإن خانت المرأة، خان الرجل، ولكن وقع خيانة المرأة أكبر ويحمل بعدا أعمق، لأن فضيلة المرأة أهم كثيرا للمجتمع من فضيلة الرجل لأنها الأم، وهي المربى الأول للمجتمع، لذلك سقوطها يصدر دويا أكبر.
قاطعه صاحبه قائلا: يا صديق فلتبتعد عن الفلسفة قليلاً، الأمر بسيط، تستطيع الآن بعشوة بسيطة أن تنام مع واحدة، إذا كانت ممارسة حقك في الحلال يحتاج ربع مليون، مارسه في الحرام بربع فرخة، أطلق الجملة الأخيرة وساده ضحك هستيري.
ضحك أحمد على ضحكه ثم قال: لقد تأثرت بالأفلام الإباحية التي تشاهدها، مازال المسلمون يحافظون على ....
الشرف –قاطعه صديقه مندفعا- ثم واصل كلامه: يا صديق نحن الآن نقوم بثورة جنسية مثلما حدث في أمريكا، ولكننا ما زلنا نحافظ على بعض من تقاليدنا.
سكت لحظة ثم أردف: الستر، نحن نقوم بالفعل في السر فقط، فلا تقول لي شرف أو غيره، ما عاد أحد يهتم بالشرف أصبحت كلمة قديمة –تأمركت النساء- وأصبح الشرف حالة يمكن تجاوزها تماما والعيش بدونها.
سأله أحمد: وما مفهوم الشرف لديك؟

أجابه ضاحكا: ألا تعرف الشرف أم أنك ما زلت تخجل؟
هز أحمد رأسه وقال: آه، إنك من هؤلاء الذين يظنون أن شرف المرء قابعا فقط بين الأفخاذ، وشرف الرجل في جسد ما، أكمل ضاحكا: شرفه في جسد ليس بجسده وأفعال ليست بأفعاله.
نظر إليه صديقه باستغراب شديد، فأكمل شارحا: يا صديق، الشرف أفعال متحركة وليس جزءً ثابت بين الأفخاذ، الشرف في روح جميلة تتعامل بحب، وشخصية تعمل بإخلاص، وأفعال تغلبها الإنسانية، ومبادىء لا تفرّق بين شخص وآخر، وحصر الشرف في هذا الجزء من نسوتك، ازدراء لمفهوم الشرف، واختزاله إلى مفهوم جنسي، نحن نربط أشياء كثيرة بالجنس ولا نفقه شيئا عنه، نربط دائما مصطلحاتنا بمفهوم جنسي كالزواج والشرف ودخول دنيا، وهذا الربط إن دل على شيء فإنه يدل على هذا الهوس الكبير بالجنس ولكننا نغلّفه كما قلت أنت بالستر.
فالشرف والعار هي أوصاف للشخصية الفاعلة وحدها وليس أحدا غيرها، فالإنسان مهما يفعل ومهما يحيط الآخرين بالحب والحنان، أو بالقيود والسدود، لا يستطيع أن يمنع فاقد الشرف من المضي في خطيئته، ولذلك ليس شرف الإنسان في إنسانٍ آخر.

تزوجت سلا من خالد بغير حب، ولكنه النصيب، خالد شاب متعلم وسيم وثري ويحبها، كما أنه زوج تفخر به وتتباهى به

بين الناس كما كان يقول والداها، ولا يعيبه شيء سوى تلك النظرات الشرسة التي تنفلت منه سهوا إلى جسدها، كما كانت ترى في فترة الخطوبة القصيرة، وتفهمت هذه النظرات وألجأتها إلى دافع الحب أو الرغبة.
كان يهتم لأمورها اهتماما واضحا، وكان يسألها في أدق التفاصيل المتعلقة بحياتها ودراستها، كان لا يمل من النظر إليها، ويمدحها في كل شيء،ويعجب لطريقة تفكيرها وتعاطيها مع المواقف المختلفة، حتى حينما كان يختلف معها، كان يبدو وديعا وفي قمة الذوق والتقبل، وكان كثيرا ما يُضحكها حين يسألها عن هوايتها، حيث كانت كلماتها ومصطلحاتها أعمق من قدرته على الاستيعاب في كثير من الأحيان، وكانت تتعمد ذلك.
لكنه كان يعوض هذه الاختلافات بالكلام الرومانسي، فكان يقول لها إنها النجمة التي ستزين حياته، وأن الحب سيغمر حياتهما بالسعادة، وسيكون لهما بمثابة المظلة التي تقيهما حر الصيف ومطر الشتاء ورياح الخريف والربيع.
لم تكن تحبه مثلما أحبت أحمد، بل لم تنس أحمد تماما، فالأنسان قد ينسي الكلمات، ولكنه لا ينسي المشاعر التي أحس بها، وقد ينسي ملامح الوجه، ولكنه لا ينسي السعادة التي رسمها ذلك الشخص على وجهه، كان أحمد حبها الأول، ولكن على عكس المعتاد كان حبا حقيقيا مبني على مشاعر حقيقية، ونضج على نهار هادئة، ولا حب يتفوق على الحب الأول، ولا شيء يعادل نشوة وسعادة الحب الأول إن كان حقيقيا.
وافقت وبرغبتها، فلا أحد يعلم ما يخبئه لنا القدر، فإذا أرادت لنا الحياة أن تروينا فأنها تسقينا حتى من قلب الحجر، وإن أرادت أن تدفئنا ستشعل لنا النار حتى في قاع البحر.

فقبولها بزواج كهذا مرده إلى عدم الاكتراث لا الخضوع، فما كان لأحد أن يخضعها لشيء لا ترغب به ولا حتى والدها.
ولكنه اللاكتراث، الذي ما إن تجده يبسط نفسه على عقل الفرد حتى يصبح لا مباليا حتى بأخطر المواضيع، وحتى وإن كان لا يزال يكتوي سرا ببعض نيران التذمر، فإن الإذعان يبدو واضحا عليه.

****

وفي بداية الزواج، أثناء شهورهما الثلاثة الأولى، كانت الحياة بينهما سعيدة، غاية السعادة، لم تكن هناك مشكلات بينها وبين خالد، بل لم تكن هناك مواضيع تجلب المشاكل، كانت حياتهما عبارة عن قبلات متواصلة، وكلاما رومانسيا، وعشاءً فاخرا في أرقي المطاعم، وسهرات راقصة، وسعادة ونشوة باللقاء.

ولكنها لم تكن سعادة حارة هوجاء تدغدغ الروح لأنها لم تنبع عن حب أو عاطفة، بل كانت سعادة متحفظة جوفاء تنبع من العرس وتقاليد بدايات الزواج ونشوة اللقاءات، وبعد فورة البدايات مرت الأيام وعلمت أن خالد يقبل على شرب الحشيش بكثرة، كانت في البداية تظن أنه مخمورا، قررت أن تواجهه وتثنيه عن ذلك ، فبدأت العصبية تدب في كلامه وأفعاله، أصبح عصبيا أكثر مما عرفته ، وأصبحت تصرفاته تشذ عن المألوف، وأصبحت مواعيده غير منتظمة، لا يأتي في الغداء ويتأخر عن العشاء، بل يتركها وحدها من أول النهار حتى منتصف الليل، وحين تسأله يتعلل بالعمل، حتى حينما يأتي مبكرا كان يكثر من الملاحظات على كل شيء يراه وخاصة عليها هي شخصيا، وكثيرا ما تتحول الملاحظات إلى مناقشات، وفي بعض الأحيان تتطور المناقشات إلى جدال، فكانت تضيق من ذلك، وتتذكر كلمة والداتها أن بقاء بعض الرجال في البيت خراب، وأن سعادة البيت في عدم بقاء الرجل طويلا بداخله، وكانت حينما تعاتبه بلسان الحيرة والاضطراب، كان يقول لها أنه هكذا وسيظل هكذا وان لم يعجبها فعليها أن تضرب رأسها في الحائط، أو تشرب من ماء البحر، فكانت تتلوي تلوي الملسوع وتتأوه آهات مبكيات، وتكظم غيظها وتسكت.

لم تنكر حبه، بل كانت واثقة من أنه يحبها كثيرا، كان خالد يحبها حقا ولكن فقط، حب خالي من توافق فكري أو تمازج روحي أو ما يقوي صداقتهما، وحب خالي من صداقة لا يدوم، فالصداقة تلك المبنية على التفاهم والتوافق الفكري والروحي تعيش أكثر من الحب، والحب الذي يخلو من تمازج وصداقة

هو حب جسد، حب امتلاك، هو حب شهوة لا يلبث أن ينحسر، فإن كانت هرمونات الحب تخبو بعد فترة وتقل بالاعتياد، فإن الصداقة لا تقل بل تذيد مع استمرار الزمن وتقوي وتزداد ترابطا بالاعتياد.

وبمرور الوقت قل الحوار بينهما، بل وانعدم بتوالي الأيام، ذلك الحوار الذي يزين التواصل بين الأزواج وكأنهما أصيبا بالخرس الزوجي، وقلة الحوار الزوجي يؤدي إلى إيجاد مشاكل حتى من أبسط الأمور، لأنه يدل على عدم التفاهم والتواصل وبالتالي عدم الرغبة في حل المشاكل، وانعدام لغة الحوار بين الشريكين يجعل العلاقة ارتباط شكلي، وتجعل الحياة بينهما طلاق روحي وطلاق سيكولوجي وهذا ما قد بدأ يدب في علاقتهما.

****

أصبح يتركها وحدها كثيرا، وكأنها كانت شيء جميل كان يرغب في امتلاكه، وبمرور الوقت أستهلك هذا الشيء وملّه، ولا بدّ من التجديد، وقد أعياه أن يتظاهر بشيء أو يتكلف المدح أو حتى الابتسام، فقد كان التكلف يتطلب منه مجهودا من قبل، أما الآن أصبح لا يرغب في بذل ذلك المجهود، فقد نشأ طفلا على التدليل الذائد من قبل والديه، فتم بذلك تنشئته بطريقه

خاطئة، حيث تعود على أن تكون كل رغباته مجابة، فتعود منذ نعومة أظافره على الأخذ دون العطاء.

كان صغيرا يصر على البكاء، فيستجيب الآبوان لطلباته، فتعود على اتباع أي أسلوب يوصله إلى غرضه، وعلى الجميع أن يقوم له بدور الخدم، فكل اهتماماته وأفعاله تتمركز حول نفسه، دون أي اعتبار لمقاييس أخرى، فلا حزن إلا حزن نفسه، والا سعادة إلا سعادته، أما ما دون ذلك فلا يهم وأما الآخرون فليذهبوا إلى الجحيم.
وهذا التدليل الذائد يخلق طفلا راغب في السيطرة على كل من حوله، وتزيد الأنانية لديه وحب الذات بطريقة أكبر من المعتاد، فالتدليل المفرط للطفل وإغداقه بالهدايا وتلبية كل طلباته حتى الغير مناسبه بجانب انه يجعل منه شخصية اتكالية يعتمد على الآخرين في حياته، يخلق بداخله شخصية لا تنظر إلى مشاعر الآخرين بل فقط إلى ما يحقق غايته ويرضي غروره.
فكان يأخذ منها ما يريد ثم يدير ظهره لها دون مراعاة لمشاعرها، ودون اعتبار لأي وجود لها، وكأنها أداة تلذذ بها ثم القاها بعيدا حتى المرة القادمة، فشعرت بأنه تزوجها فقط لإرضاء حاجاته وخدمة بيته وأولاده مستقبلا دون اعتبارها شريك حياة، لها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات، فشعرت بانحسار أدميتها وأحست بأنها تتحول في داخله إلى شيء لا إلى روح، ومن هنا بدأت رحلتها مع المعاناة في وجود هذا الحرمان العاطفي، فلا أصعب على المرأة من تهميش شريكها، ولا أسوأ من رجل يبخل على زوجته بمشاعره وعطفه وحنانه.

ونتيجة لذلك الحرمان بدأت لا تستجيب له وتعامله ببرود حتى في العلاقة، والمرأة العاطفية الرومانسية لا تستطيع التجاوب مع برود شريكها الحسي والعاطفي، وقد تكون متعة الإشباع الجنسي دون عواطف ليس لها تأثير لدي المرأة بقدر ما تسعدها الكلمة الرقيقة وتغنيها اللمسة الحانية وتذيبها الضمة التي تشع حبا وحنانا، ولا شيء أسعد للمرأة من حب شريكها وعطفه عليها، فهي تستمد وقود حياتها من هذه العاطفة.

****

هو فعلا أحبها، ولكن حبه كان حبا استحواذيا وحبا استهلاكيا، وفي هذه الأنواع من الحب تتأكل العلاقة حتى تنعدم، وتبلي المشاعر وتجف كزهرة في صحراء قافلة لا راع لها ولا ساق، والحب الاستحواذي من اسمه هو الذي يميلُ إلى التملكِ والاستحواذ مع عدم تقبل رفض الطرف الآخر، امتلاك شيء أو شخص جميل، لا يشترط أن يلائمني هذا الشخص أو ذلك الشيء، المهم ألا أدع شيئا جميلا كهذا يبتعد عني أو يذهب

لغيري، ثمة شهوة دائما في تملك الأشياء الجميلة حتى لو لم تكن تلائمنا.
والحب الاستهلاكي في العلاقات العاطفية قائم من منطلق أنا أحب إذا أنا أريد الاستمتاع فقط، أنا احبك أذا أريد الاستمتاع بك وفقط، أي انه استهلاك نفسي وجنسي، وهذا الحب يبلي سريعا فإن كانت أكثر الأبحاث العلمية تفاؤلا تقول إن كيمياء الحب تظل متقدة لثلاث سنوات، فإن المدة أقل كثيرا في الحب الاستهلاكي، فالإنسان كائن ملول بطبعه، مهما كان جمال ما في يده، فإنه يزهده، وينشد غيره، ويسيل لعابه على أطباق الآخرين، تلك التي ربما لن تكون بجودة أطباقه.
وكانت تتساءل ما الذي طرأ على خالد، فقد ظهر عليه التغير وأصبح واضحا، وما عاد ينظر إليها بنفس العين التي كان ينظر بها إليها من قبل، وأصبح يستهجن جل كلامها وينتقد معظم أفكارها ويسخط من تعاطيها مع الأمور، ومازال مقدار الحب في قلبه يضيق ، حتى أصبح فاترا واستحالت نار حبه إلى رماد، فأصبح أكثر تبرما واستثقالا لحديثها، وبالتالي أصبحت لا تأنس بلقياه، ولا تألف أحاديثه، ولا تهنأ باجتماع معه ولا خلوة به، وكلا منهما لا يري في أحاديث الآخر ما يألفه أو يرضي نفسه.
فإن كان التجمل والخروج عن الطبع يستمر برهة من الزمن في فترة الخطوبة وبداية الزواج، فإنه ما يلبث إلا أن يعود لطبعه الذي فطر عليه، وخلقه الذي خلق به، وهكذا ظل التكلف والتجمل يتراجعا شيئا فشيئا أمام فطرة الطباع، حتى استوحش كلا منهما طبيعة وميول وأفكار وأحلام الآخر، وكان يوسعها هزؤا وسخرية، خاصة بعدما يبدي امتعاضه من شطحات

أفكارها، وخفقات قلبها، واختلاجات نفسها، ونزاعات عاطفتها، وتصورات آمالها، فتباعدت النفوس أكثر واضمحل التواصل، وهكذا بدأت تعيش في عزلة منقطعة عن العالم، وكأنها في صحراء نائية حيث لا يوجد هناك أنيس ولا جليس، كانت قريبة منه جدا بعيدة عنه جدا، وأحست بهوة عميقة تنفرج وتفصل بينها وبينه، فجثمت على صدرها سحابة من الكآبة، واستحالت حياتها حزينة كامدة.

والقلب لا ينسى إنسانا أحبه، لذلك أخذت تتوارد على خواطرها صور من الأمس القريب، لقاءاتها ومشاعرها مع أحمد، فأصبحت الدموع تند من عينيها حتى دون أن تدرك ذلك، وحين تتذكره تصبح كالأرض القاحلة تتشقق ذرات ترابها، تنادى وتتوسل من أجل الماء، هي كذلك تنادى وتتوسل من أجل العاطفة، ولكنها حقا تكون كالأرض باهتة صامته لا تملك حيلة.

الآن بدأت تفهم، لقد قال إنه وقع في حبها، وذاب في غرامها من أول نظرة.
والحب من أول نظرة ليس حبا صارخا ولا هياما جارفا، كما المتداول وكما صورته الأغاني الحديثة وخاصة الشعبي منها، وإنما هو حب شهوة وحب امتلاك وفي أفضل الأحوال قد يسمي انجذاب، انجذابا من أول نظرة وليس حبا من أول نظرة، فالحب موضوع روحي ونفسي وعقلي في المقام الأول، فانت تحب الشخصية لا القوام، وأنت حين ترى شخص ما وتدّعي أنك وقعت في حبه من أول نظرة، ماذا رأيت فيه لكي تحبه؟ رأيت جسد، ذلك الشعر المسترسل لفتاة ذات ملامح أنثوية رقيقة بعيون ساحرة ورموش قاتلة وانحناءات أنثوية فاتنة، أو قوام ممشوق وجسد رياضي لشاب وسيم يتسم بأناقة وجاذبية أو بإبتسامة خلابة، ولذلك فإن الحب من أول نظرة ما هو إلا انجذاب مبني على الشكل والملامح فقط، هو حب الجمال أو الوسامة، والمسئول عن وقوعنا فيه هو الجزء المسئول عن الرغبة والشهوة في عقولنا.
وقد يتطور إلى الإعجاب بالتفاصيل وهي المرحلة الثانية والمفصلية فيما يسمي بالحب من أول نظرة، يتطور من مرحلة الانجذاب بالشكل أو القوام والملامح إلى الإعجاب بالشخصية من حيث الصفات والذوق والعاطفة وطريقة التفكير والملامح النفسية فيتحول الإعجاب إلى شغف ورغبة.
وقليلا ما يتطور هذا الشغف إلى المرحلة الملكية في الحب، مرحلة الحب غير المشروط، المرحلة التي تساعدنا على تسيير حياتنا مهما كان الاختلاف، ومهما ظهرت المشاكل، فهي

مرحلة الالتزام والقرار بالبقاء سويا ومشاركة الحياة والتغلب على صقيع الخلافات بنار الحب المتقدة.
فإن كان الانجذاب من أول نظرة يزيد ضربات القلب بفعل المادة الطبيعية التي تفرز عن طريق موصلات وخلايا عصبية - النورادرينالين - ويعطي شعور بالسعادة لان المخ يبدأ بدفق الناقل الكيميائي - الدوبامين- الذي يجعل الإنسان يشعر بالسعادة والرضا والنشوة، فهو مع ذلك لا يدوم ويتلاشى سريعا مع الوقت لأنه انجذاب قائم على الشكل الخارجي وليس الجوهر الداخلي، أما الحب الحقيقي فلا يأتي هكذا ولا يصير فجأة حبا وهياما، وإنما ينضج على نار هادئة، ويتدرج كما الطفل الصغير يحبو فيسير ثم يجري.

****

نشبت المشاكل في بيت الجيران، لا يشترط أن تثار المشاكل لأسباب حقيقية، الاحتقان والتنافر الموجودان مثل الشرر ينتظر من ينفخ فيه حتى يشتعل، أو مثل المنطاد وقد عبئ سابقا بالغاز الخفيف فتكفيه وخزة بسيطة لينفجر في وجه صاحبه.

كالعادة، كان الجيران يستمعون إلى نشرة أخبارهم اليومية، وهم يستمعون إلى كلمات زينب، حيث كانت آلامها النفسية اشد إيذاءً هذه المرة من آلامها الجسدية، فكانت تفر من ثروت زوجها كما يفر المرء من غريم، وعلا صوتها وازدادت حدة الغضب فيه، فكيف ينهرها ويسبها صباحاً ويريدها مساءً وتكون هي في قمة الحب والرغبة.
كان العنف سمته اللاصقة به كيفما تصرف، حتى في أشد الأوقات حميمية، وكان ما يتلقاه من مفاهيم مغلوطة وخيالات فائقة ومشاهد مركبة وأجسام معدلة تجعله يري أفكارا مشوهة عما ينبغي أن تكون عليه العلاقة الزوجية خاصة، والعلاقة بالجنس الأخر عامة، فكان يطلب منها أشياء مهينة، ويتقمص أدوار ومشاهد غير سوية، تنفر هي منها ومنه وتبتعد عنه، حتى لو اضطرت إلى أن تذهب لتنام بجانب أطفالها، فكان يلح في طلبها تارة بالتهديد وأخرى بالوعيد، ولذلك كان صوتهما يرتفع أحيانا، ويعمى الغضب أعينهم فتنتثر بعض الأسرار الشخصية على موائد الغرباء ليأكلوا منها تارة ويتندرون بها أخرى.
كان يعاشرها عنوة، من دون رغبة أو قدرة أو أن تكون مهيأة لذلك، يجبرها ويسرف في التهديدات بل ويحلف بالطلاق ويكثر منه، رغم نصيحة الكثيرون له بعدم الحلفان بهذا القسم، كي لا

تقع الكارثة وهم في سهوا عن حكمها، وتصير حياتهما حراما شرعيا.
كان الجانب الإنساني والروحي من العلاقة بينهما شبه معدوم، جثث هامدة باردة تصطك ببعضها البعض، فكان هرمون - الاكسيتوسين- المسئول عن الشعور بالسعادة واللذة في العلاقة غائب بينهما، هذا الهرمون مسئول عن الشعور بالراحة والألفة والإحساس بالأمان، وهذا الهرمون ليس مرتبط فقط بنجاح العلاقة الزوجية، بل بنجاح الحياة الأسرية كاملة.
يتيح له الشرع والقانون ذلك، ولكنه يتجاهل الجانب النفسي والإنساني لشريكته، الاغتصاب الزوجي في أبهي صوره، كانت في أغلب المرات علاقة حيوانية، كما يقع بهيم على بهيمته، لذلك وبعد فترة طويلة كانت العلاقة بالنسبة لها مصدرا للآلام والنفور والاشمئزاز، فكانت تأخذ منوم أثناء العلاقة الزوجية، تذهب لعالم آخر أفضل مما تعيشه، لتغيب عن ذلك الألم النفسي والجسدي، وكثيرا ما يكون الاغتصاب الزوجي اشد ألما من جريمة الاغتصاب، هو أيضا جريمة ولكن تحت سقف القانون.
وبمرور الوقت بدأت تشعر تجاه زوجها بالنفور وفقدان الثقة وعدم الشعور بالأمان والاطمئنان، وتشعر تجاه نفسها بالإهانة والانكسار والهوان، وتشعر تجاه جسدها بالاشمئزاز والنفور وفقدان الرغبة والبرود الجنسي.

كانت تعاني منه، قررت قبل الوفاة أن تخبر والدها بكل شيء، ولكنها في اللحظة الأخيرة عجزت عن مصارحته، وعجزت عن إخراج هذه الكلمات لأي أحد آخر فماتت على لسانها، كانت

تفكر كثيرا ماذا ستقول؟، وكيف ستقوله؟، وكيف سيتلقى الآخرون كلامها، وهل ستحل مشاكلها، كانت في كل مرة تعصر عقلها فكرا، فتنضح منه الأفكار خارجة لتقول لها أنه وفي ظل عدم وجود حل يرضيك بكل الوسائل، وفي ظل غلق الأبواب التي كنت ستحتمي بها، لا تجد أمامك غير سفينة الخضوع والاحتمال لتصلك بك إلى نهاية الطريق، فالحياة كما المريض الذي يأكل وجبة معينة يعلم أنها تضر به، نعيشها رغم صعوبتها وقسوتها وشقاءنا فيها، فعاشت.

****

وكان الطفل يوسف يهدد والدته بالطلاق - كما يفعل والده- كلما أراد أن يثنيها عن فكرة ما، وكانت تهدده بأنها ستقول لوالده، فلا يقولها ويعتذر ويستجلب رضاها، وتكرار كلمة الطلاق على مسامع الطفل يؤثر عليه ويجعله يقر بمدي سهولتها مستقبلا، لأنه اعتاد على سماعها، وبالتالي تقل رهبتها، والأبحاث تقول إن زيجات الأطفال الناتجين عن تجربة الطلاق تعاني نسبة أكبر من أطفال الزيجات الأخرى، فالأطفال يتعلمون الالتزام والتفاهم والتقبل الزوجي من آبائهم.

****

أدى العنف الجنسي معها إلى بعض التهتك في جهازها التناسلي الداخلي، زيادة على ألام الحوض التي كانت تعانى منها سابقا، ذهبت إلى المشفى التي قدمت لها العلاج، العلاج الوقتي فقط، كانت تتمنى أن يفتح تحقيقا مع زوجها، ولكن لم يكن هناك فرصة اتخاذ إجراءات أخرى ضد الزوج، فهي ليست حالة اغتصاب، بحثت عن بيت أمِن - تلك البيوت التي تخصصها وزارة التضامن الاجتماعي لاحتضان الناجيات من حالات العنف الجسدي - ذلك أن أهلها رفضوا مساعدتها خوفا من الفضيحة، واستنكارا لما قالته، عانت كثيرا حتى عثرت على رقم لاحدي هذه البيوت، اتصلت كثيرا ولكن أحدا لم يجب، ثم أخيرا أتاها رد، كان مفاده أن طلبها قد رفض، لأنها زوجة والعنف الزوجي لا يعد نوعا من العنف الذي تتلقاه مريدات تلك البيوت.

ووفقا لتقارير منظمة الصحة العالمية لعام 2013، فإن 35% من الزوجات تعرضن للعنف الجسدي أو الاغتصاب الزوجي على الأقل مرة واحدة في حياتهم الزوجية.

كما أن دراسة حديثة صدرت من داخل أروقة محكمة الأسرة بإمبابة، تشير إلى أن 100% من الزوجات اللاتي أقمن دعوات طلاق أو خلع تعرضن للعنف الجنسي، و10% منهن خضعن لإجراءات طبية بسبب تعرضهن لإصابات جسدية، نتيجة لذلك العنف معهم والذي غالبا ما يكون ناتجا عن تعاطى المواد المخدرة.

كانت زينب قد كرهت اللقاء به سابقا، ثم بمرور الوقت كرهته هو شخصيا، أما الآن فقد كرهت حياتها بجواره، فالأنثى لا تحكم على الأشياء إلا من خلال ما تحب وما تكره.

كانت في قمة الإحباط والاكتئاب، مع عدم وجود قانون يجرم هذه الفعلة، جعلها هذا لا تجرأ على الذهاب لتحرير محضر لتلك الواقعة كما كانت تفكر، راودتها فكرة الانتحار وأن تضع حدا لهذه الحياة البغيضة، عزمت عليه، ولكنها لم تستطع بدافع الأمومة، لم يكن أمامها سوى الخلع، والذي بموجبه تتنازل عن كافة حقوقها المادية، غاصت في التفكير به ولكنها اكتشفت أنها لا تستطيع تحمل التكلفة الاقتصادية للخلع وتبعاته، وتحمل وحدها مسئولية الأطفال، كما أنها لم تجد لها مساندا من أهلها يعاونها على ما ترغب به، لذا آثرت الصمت والتحمل.

كان زوجها يظن بذلك أنه ينجح جنسيا، هو صحيح ينجح جنسيا في كل لقاء ولكنه كان يخفق إنسانيا، فالعلاقة ليست بين إنسان وأداه، كما أن العجز في اللقاء ليس بعدم القدرة فقط، ولكن أيضا بعدم إشباع الآخر والتفنن في إرضاءه، فتعلو به من الأفق الحيواني إلى الأفق الإلهي.
كانت تتعذب وحدها وتكتم أوجاعها بداخلها حتى سرت الأمراض في جسدها وتناوبت عليها العلل والأسقام.

****

تأثر مستوى الطفلة الدراسي في الآونة الأخيرة، وخاصة بعدما غضبت أمها وتركت البيت، ولكنها عادت ولم يعد عقل الطفلة كما كان، وكيف يجد الطفل العقل والتركيز ليفهم، وحريق من الاضطرابات والتوتر يلتهم البيت بين الفينة والأخرى، فكان القلق يسيطر على كيانها كلما أرتفع صوت أحد أبويها، وكانت تتخيل وهي في المدرسة أن تعود، فتجد الجيران يقفون أمام بيتها يشاهدون المشاجرة التي تدور بين أبويها، ويتندرون عليهما وعليها، وكانت حين تتخيل هذا المشهد تذوب في نفسها ويسرح خيالها أكثر، ويسبح في أفكار وتساؤلات عن ماذا تفعل وماذا تقول لهما أمام الناس، أو كانت تأخذها موجة أخرى من الأفكار بأن تترك البيت وتهرب، تارة تفكر في الذهاب إلى أحد أقربائها، وتارة أخرى تهرب إلى الشوارع بعيدا عن هذا الألم النفسي، وتبدأ عينيها تذرف الدموع، ثم ما تلبث أن تستفيق من خيالها وتبتعد عن أمواجها، وتكمل ما كانت تفعله، ولاحظت زميلاتها هذه الغيبوبة التي كانت تغيب بداخلها بين الحين والآخر، ولاحظت إحدى مدرساتها ذلك، فتحدثت معها بشأن البيت ومشاكله المتواترة ،وطمأنتها المدرسة وطلبت منها أن تطرد هذه الخيالات من عقلها وأنها هي التي ستقف أمام أبويها وتمنعهما من الشجار ثانية.

****

تدوي ضحكات روفيدا ابنة أحد الجيران المراهقة، تلك البنت على ثلاثة أولاد، أتمت دراستها الابتدائية في سنواتها الست، في براءة طفلة صغيرة، تلعب بالعروسة وبكل ما يحمل شكل العروسة أو الفتاة الناضجة، تزينها وتخيط لها الملابس الأنيقة، التي تحلم هي بارتدائها، وتأتي لها بشعر ملون تتمني أن يكون هو شعرها، ثم دخلت الإعدادية بعقل وقلب طفلة، وما لبثت أن تغير جسدها، وازدادت هرموناتها، أحست بأنوثتها، وشعرت أنها كما كانت تقول أنسة لا طفلة.

تأخر تحصليها الدراسي، وانشغل عقلها بتلك الأشياء الفارغة، المشط، والمرآة، والفستان، وأدوات الزينة، تلك الأشياء التي ترى من خلالهم أنوثتها، تقف ساعات بالمشط أمام المرآة، تصفف وتسبسب، تعقد وتحل، تربط وتضفر في شعرها، وأوقات أخرى بالملاقط تكثف وترقق في الحواجب، وأوقات أخرى ترتدي وتخلع، تضع وتنزع في الملابس، بعد أن تضع كل أنواع البودرة وتستخدم كل أقلام الكوكب من ملمع الشفاه إلى قلم الكحل ومحدد الشفاه مرورا بالكحل السائل وبودرة أحمر الخدود والكريمات الخافية للعيوب والمرطبة، تغير طلاء الأظافر كلما أحست بالملل، هذه المرة أحمر وتلك أسود وغيرهما بحناء، ثم شد الملابس وتضيقها للدرجة التي تظن أنها تريد أن تعلم الناس بمقاسات جسدها.
فكانت تدور أمام المرآة وتتحسس جسمها وتشعر بأنوثتها تتفجر فيها شيئا فشيئا، ثم تعيد الكرة مرات ومرات ولا شيء في الدنيا يهم سوى ذلك، تسرح الحشرات في البيت وتظل الأطباق متسخة حتى تستطيع الأم غسلها، ولا تستطيع الأم وحدها مع

كبر سنها وقله مجهودها وكفاحها مع الأمراض أن تقوم بما كانت تفعله وحدها قديما، ولا تقدر على مواكبة كل الطلبات، وكل ذلك ينعكس على نفسية الأم وتظهر العصبية في تعاملها مع زوجها وأولادها.
فكثر فراغ الفتاة وبالتالي خف عقلها، تثير المشاكل على توافه الأمور، وتسمع صوتها العالي الرفيع يصم الأذان، ولا تكون في أوج عطائها الفكري وتركيزها السمعي والبصري إلا حينما تشاهد المسلسلات، تلك المسلسلات الهندية أو التركية التي تعج بالمشاعر والأصوات الهادئة المنخفضة، تتأثر بها جدا وحين تتحدث تسمع صوتها من أول الشارع، يتسم أبطال مسلسلاتها بالنشاط، وتتسم هي بالخمول حتى الثمالة والكسل حد الموت.

وبين الحين والآخر شجارات الملابس لا تهدأ، فما إن تحصل على فستان أو طقم من الملابس، حتى تفكر في الآخر، وما أن تحصل على قطعة على الموضة، حتى تخطف موضة أخرى بصرها وتفكيرها، تلك الموضة التي تفتن النساء ابتكرها الرجال، وذلك لاهتمام الرجل بجسد وشكل المرأة، كانت حقا فتاة جميلة، بجسم شهي ممتلئ بعض الشيء، من النوع التي تفضله الأمهات لزيجات أبنائها، وشعر اسود كالفحم تخرج خصلات منه من تحت الطرحة تسرق العيون شدة سواده ونعومته، وعيونها عسلية تدل على جاذبية خاصة وبمقلاتين صافيتين، تفرط في الملبس والزينة لإبراز جمالها كأنها تتباهي به، وكأنها تطلقه على الناس يجري وراءهم لإغرائهم.

لغت الأم عن كاهلها معظم الأعباء، فظهر أثر ذلك في انخفاض شعورها بالمسئولية واتسمت باللامبالاة، وكان سؤال واحد يتردد على لسان والدتها متى ستتزوج ابنتها؟.
لم تحظ والداتها بتعليم جيد، ولم تكن تدرك الدور الحديث للمرأة أو الفتاة في مجالي العلم والعمل، ما كانت تدرك سوى أن مستقبل البنت وسعادتها غير موجود إلا في الزواج، ولن تستكمل البنت كيانها ولن تكون لها شخصية ولن تعيش الحياة كاملة من دون زوج لها، تعيش في كنفه وتستظل بظله، وكأن البنت شيء ناقص لن يستكمل إلا بالرجل.
فالبنت التي لا تتزوج - طبقا لوالدتها - ليس لها فائدة في الحياة ولذلك كانت تخشى على روفيدا من هذا المصير.

وكانت دائما ما تحثها على الذهاب إلى الأفراح، أو إلى أي مناسبات اجتماعية يحتشد فيها الرجال والنساء، تدفعها دفعا إلى لكي تتحمس إلى الزواج، أن يكون لها بيت وزوج وأطفال وهي مازالت صغيرة، فبنت جارتهم لم تكن أجمل منها ولكنها أصغر فتاة تزوجت في الحي وتتفاخر أمها بذلك.

وبالفعل حدث سريعا ما كانت تسعى له الأم، وخطبت لأحد جيرانها.

وكعادة الزواج، وبعد شهوره الأولى التي تفيض حبا ولهفة، ورغبة وشهوة، تبدأ المشاحنات والمشاجرات، وتبدأ الاختلافات في الظهور ويظهر عدم التوافق والاختلاف في الأفكار والميول، يبدأ كل فرد يظهر على حقيقته وطبيعته وسجيته فيخلع الجميع قناع الجمال الذي يسقط في بهاءه الطرف الآخر، فمن أكثر الأقنعة المزيفة التي يرتديها البشر ذلك القناع الذي يلبس في فترات الخطوبة؛ يطرح كل فرد أشياءه الجميلة التي تجذب الآخر، ويحاول جاهدًا إخفاء عيوبه ومساوئه، فيرتدي الشاب فيها ذلك القناع المتسم بالرجولة، الأناقة، الجرأة، القوة، القدرة المالية ،القدرة على الاحتواء، والعاطفة الجياشة القادرة على إذابة كل متاعب الحياة، وترتدي الفتاة ذلك القناع المتسم بالرقة، الأنوثة، الصوت المنخفض، الرومانسية المفرطة، لذا لا وثوق في ذلك الوجه الأول المنمق، وبمرور الوقت والخلافات تظهر تلك الوجوه الحقيقية المختبئة خلف ذلك الوجه، وبعد الزواج تظهر الحقيقية سافرة بلا رتوش، ويظهر الشكل الحقيقي بكل ما به من اختلاف، وأول ما تبدأ به المشاكل بعد خلع القناع المزيف، توضح ما نحن قادمون إليه وتظهر مدي توفيقنا في الاختيار من عدمه، ولذلك كانت سلا تصارع الكآبة والشقاء وحدها، وتتظاهر بالمرح والسعادة في كل أوقاتها، وحينما كانت لا تجاهر بالشكوى ولا تظهر التوجع، كان الجميع يظن أنها نائمة على رصيد كبير من الحب والسعادة، وكانوا يحسدونها على حياتها.

تستمر المشاكل ويزداد النفور ويظهر الابتعاد والزهد، فتجف مياه الرغبة بين الزوجين وقد انطفأت في قلب خالد قبل أن ينتهي العام الأول، فالتعود سم قاتل يحيل الجميل إلى قبيح، ويحيل الحديث إلى قديم، ويبقي التفاهم وتوافق الأرواح والقدرة على تسيير الأمور.

ومازالت سلا في عدم اكتراثها والذي سهوا أدى بها إلى الحمل، قبل أن تكتشف أن هذه العلاقة في سبيلها إلى الهدم فما بني على غش في المظاهر والصفات والنوازع الداخلية، يهدم بعد شهور قليلة وفترة وجيزة من التعود والمعاشرة، ولكن دائما الأسوأ هو ما يحدث، وحين تدور الأفكار والنوايا في عقلها تعلم أن القدر عبث بحلمها السهل فصار صعبا.

وفي وقت كهذا أصبح أسلم شيء للأزواج الجدد عدم التسرع في وجود الأبناء، لا بدَّ على الأقل من انقضاء عام أو عامين ثم بعد ذلك يتم الحمل، هي فترة لمعرفة مدي التوافق والتقبل والقدرة على المعيشة والاحتواء، لأن هذه الصفات تكون في فترة الخطوبة شيء وبعد الزواج شيء آخر تماما، إلا إذا كان الزواج مبنى على حب سابق قد يمطر بردا وسلاما على أصحابه أمام الأمواج الحارة التي تحرق الزواج خاصة في سنواته الأولى، والدليل أن حالات الطلاق في السنين الخمس الأولى للزواج هي النسبة الأكبر في معدلات الطلاق العام حتى أن النسبة تتجاوز 40% من حالات الطلاق إجمالا، بالإضافة إلى أن هناك نسبة كبيرة من حالات الطلاق تتم بين زوجين حديثي الزواج لم يمر على رحلة زواجهم أكثر من عامين، ولا

ذنب للأطفال في ذلك، فقد يتزوج الأب ثانية وكذلك الأم ويجد كلا منهما الحب والإشباع العاطفي والنفسي ويبقي الطفل يتعذب ويعاني نقصا أو حرمانا عاطفيا يلقي بظلاله على تكوين الطفل وصحته النفسية والاجتماعية.

****

وفي ظل هذا الغلاء الفاحش الذي يضرب البلاد ويسوق العباد بعضهم على بعض، وإثر محاورة بينهما، مال خالد نحوها ورفع يده وهوي به على خدها، ضربها خالد بسبب شرائها بعض الكتب والروايات التي تبعدها عن الواقع، وتجعلها تعيش في تخيلات لا تمت للواقع بصلة معللا أنه يتعب ويكد حتى يحصل على الأموال وتأتي هي لتشتري به ورق، هذا الورق الذي كان يهاديها به أيام الخطوبة!

تعلم في قرارة نفسها أنه لم يضربها لسبب مادى، فهوي ثري وتدر عليه محلات الملابس التي يملكها مبالغ كثيرة تكفيه طوال العمر، ولكن بسبب اختلاف الأرواح والرؤى والميول، فكان يصف قراءة الكتب وكأنها تخرب عليها عقلها، وتفسد فكرها، وتجعلها مبتعدة عن تفكير الناس والحياة، تفهم ذلك، كيف له أن يصل إلى ما تصل هي إليه من القراءة، وهي التي كانت وما زالت تعتقد أن القراءة تعويضا كافيا عن كل خيبات الحياة، بل شافيا من كل أوجاع الحياة، وكيف وكل منهما - حسب وصفها- له تردد مختلف ويتراسلا على موجتين فيزيائيا مختلفتين وروحيا متباعدتين، أن يشعر بمدي سعادتها من فعل القراءة هذا الذى ما إن تشرع فيه حتى تنتقل إلى عالم آخر، عالم جنى

ساحر، به من اللذة ما لا يعادلها حتى نشوة الحب ولذة الغرام، بل إن القارئ حينما يكون حاضر في كتاب جيد يكون غائب عن هذا العالم البائس، فكانت تكثر من القراءة في أوقات حزنها قائلة: في وقت الانكسارات أقرأ لأستعيد صفاء روحي وأدلل مزاجي، فأنا لا أحب شيئا في هذا العالم بقدر ما أحببت شعوري بالنشوة والارتياح عند القراءة.

وإذا غاب التوافق والتفاهم استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم يحرق الجميع، وتصبح أعمدة وروابط الزواج هشة تتمايل بفعل القليل من الريح، وتصبح صغار المشاكل عظام، وتصبح العلاقة بينهما علاقة الجاز بالنار.

بالتأكيد لم تكن فعلة الضرب بسبب الكتب، كانت سلا هادئة أكثر من المعتاد، متبلدة تجاه كل شيء، تجاه زوجها وتجاه المشاكل اليومية وتجاه الحياة عامة، عازفة عن بعض اهتماماتها المعتادة، حزينة مكتئبة فوق العادة، أخبرها الطبيب أنها تعاني من اكتئاب الحمل، وبالتأكيد لم يتحمل خالد كل التغييرات هذه، فشقت المشاحنات طريق أيامهما كما المياه تسيل فلا يوقفها شيء، وزادت الهوة بينهما وأرسلتهما على الجانبين متقابلين متحفزين لبعضهما البعض.

وعلى هذا تركن بيت الزوجية وعادت إلى بيت أبيها منكسرة حزينة ليس بفعل الضرب، ولكن بفعل الحمل، أدركت في قرارة نفسها أن القدر اختار عذابها بطفل قد يربطها برجل لا تريده ومصير لا تأمله، فكرت في الإجهاض قائلة: ما ذنب

طفل برئ أن يولد وبين والديه هذا الكم من التنافر، كانت تحمل هم الطفل، كيف ستجعله يعيش حياة مستقرة وأبواه غير مستقرين؟ ما ذنبه أن يولد لأب وأم لن تستمر الحياة بينهما كثيرا، ما ذنبه أن يقاسي ليري أحد والديه لبضع ساعات، ما ذنبه أن يعيش بنقص أسري وحرمان عاطفي، ما ذنبه أن.....
هزت رأسها نفيا وكأنها تستذكر شيئا ما، هذا الكم الكبير من التنافر مع استمرار هذه العلاقة قد يؤدي أحيانا إلى القتل أو الخيانة.

****

أتى خالد وأخذ سلا إلى بيتها، بعدما قدم الاعتذارات والهدايا معللا أنه كان متضايق بعض الشيء وأن ظروف عمله كانت تفرض عليه العصبية أسلوب، إلى أخره من هذا الحديث، وكانت تعلم أن أكاذيبه بالية مهترئة ساقه إليها بعض الحرج.
لم تعد بأكملها، عادت من دون جزء، جزء بداخلها كان قد ذهب وانكسر، تعود بالجسم لا بالروح، فكثرة الخلافات قد ابتلعت الرغبة في داخلها، وكثرة الاختلافات تركت روحها في العراء بلا دثار الحب أو الطمأنينة.

بدأت تنام أكثر من المعتاد، وتفضل أن تبقى وحيدة بصفة دائمة، ولا ترغب في الحديث مع أحد، وظهر عدم اهتمامها بنفسها ومظهرها حتى غامت على صفحة وجهها سحابة من الآسى والحزن.

لم تعد ترتاد السينما كعادتها، جربت أن تذهب وحدها أكثر من مرة، ما ذادها هذا غير بؤسا وشعورا بالوحدة، فتعود حزينة متكدرة، انقطعت أيضا عن الذهاب للنادي، لم تعد تتحمل هذا الهمس وذلك الغمز، وتلك الأسئلة التي تتساءل أين زوجك ولماذا وحدك دائما؟، وأين مرحك ونشاطك؟، كان الرفقاء يتندرون عليها بسخريتهم المعتادة بينهم، فكانت تغالب الدمع وتحاول أن تخفي عينيها المغرورقتين بالدموع، وتحاول أن تظهر دائما هادئة مرحة كعادتها في غالب الأحيان، ثم ينصرف الرفقاء إلى أحاديثهم اليومية التافهة، تلك الاحاديث التافهة التي

لو انصرف الناس عنها لبلغ الصمت حد لا يطاق ولبلغ السكون حد الموت، هي كذلك انصرفت، ولكن انصرفت إلى نفسها، تصطرع بداخلها الأفكار وتتناحر بداخلها الرغبات والآمال التي تترك آثارها على وجهها، فيرتسم على محياها الهم والقنوط، بدأ الضجر يزحف نحوها من كل حدب وصوب، باتت الحياة رتيبة مملة تمر فيها الأيام في ثقل ورتابة، وبدأت روحها تغرق في بئر لا قرار له من الحزن والكئابة.

****

بدأت تنسلخ عن نفسها شيئا فشيئا، كانت تعشق الوقوف في الشرفة، فهي لم تكن من النوع الذي يتخذ من الشرفة مخزنا للأشياء القديمة والأشياء التي ليس لها استخدام، بل كانت تنظر إليها على أنها قطعة أساسية من البيت، وساعدها في ذلك اتساع حجمها، فأثثتها بأثاث مريح، وزينتها بأُصائص الورد بكل أنواعه وألوانه وكأنها ردهتها الخاصة، كانت تقضي فيها أوقات كثيرة، تقرأ وتسمع الموسيقي وتراقب المارين، وفي الليل تتأمل سكون الجو وهدوء الطرقات.

كانت تحب أن تقف في الشرفة لتتمتع بنسمات الهواء ولتحصل على تلك السعادة الكبيرة حينما تشاهد الناس وهم يتحركون ويتحاورون ويتجاوبون مع بعضهم البعض، كانت تنظر بسعادة إلي تلاقي أيدي الشباب بالبنات، أما الآن فإنها تحزن وتشتاق وتحلم، فكانت الوحدة تنهش في صميم قلبها، وتؤرق كيانها.

****

ما عاد يهزها ذلك، أغلب الليالي يأتي في منتصف الليل ثم في بعضها يأتي فجرا أو يغيب باليومين، اعتادت سلا على ذلك، ولكن ما لم تعتد عليه أبدا هو الفراغ، سيطر الفراغ عليها وألقى على أيامها بثقله، بالطبع لم يكن فراغ الوقت فقط هو ما يرهقها بل كان أغلبه فراغا عاطفيا.

وفى إحدى المرات وجدت في ملابس زوجها صورة له مع سيدة ثلاثينية حسناء المظهر واسعة العينين تختلط في وجها مساحيق كثيرة، وتدلي بعض الشعيرات المصبوغة بلون ذهبي من وشاح رأسها، مشدودة القوام على ما بها من بدانة وجسد متموج، في زينة لائقة تلفت العين إلى كل مزايا جسدها، تسأله، يجيب بانها زبونة، بل إنها أفضل عميلة في متجر الملابس خاصته، وأنها أصرت على أخذ صورة معه فوافق كي لا يغضبها، وليس من الذوق أن يرفض صورة مع سيدة وهي من أهم العملاء.
قالها وهو يبتعد بعينيه عنها، سكتت، كانت من النوع الذي تتكلم عيناه، عيناها بها لمعة محببة للنفس تنطق كلاما كثيرا حين تسكت وبداخلها باقي حديث، وقد رأت سابقا صور كثيرة لعميلات مع زوجها، ولكن لهذه الصورة حرارة أكثر من غيرها، إنها غريزة المرأة، ثمة تفاصيل صغيرة لا تدركها سوى النساء، وثمة تفاصيل أصغر لا تدركها سوى الزوجة، ولهذا لا يستطيع الرجل أن يكذب على زوجته، ولكن تدّعي هي تصديقه.

النساء إنهن مجنونات بالتفاصيل، ينتبهن إلى ما لا يخطر على بالنا نحن الرجال، كل تفصيلة صغيرة ذات معنى خاص، كل نظرة بمعنى مختلف، كل ابتسامة بمعنى آخر، نبرة الصوت، هروب الأعين، محاولة الكذب، كل شيء يحلل لديهن بطريقة مختلفة.

****

اختارت إحدى الراحتين، اختارت اليأس منه، تأمل في طفلها أن يعوضها عن كل لحظات الألم والوحدة والحزن، تستمر من أجله، ولكنها يوما فيوما تذبل وتزداد نحولا حتى يخالها المرء من شدة نحولها هيكلا عظميا.

هذا الوجه الوضّاء صار معتما، وتلك الأنيقة الفاتنة صارت كخرقة بالية، طواها الحزن وأحرقتها الحيرة، ودمرتها الوحدة، حتى إنك تظن أن طائر الموت يرفرف فوق رأسها.

بل إن الكثير من زملائها تعجبنها حين تقابلت معهن، ورأين ما حل بها، لقد أصبحت هي وصورتها في أقل من عامين شيئين منفصلين لا يربطهما رابط، وقلن لها إنها إن بقيت على هذه الحالة سنة أخرى لفقدت شبابها بعدما ذبل جمالها، وأخبرنها إما أن تعود لرشدها وتألف عيشتها وتكّبر دماغها عن كل أفكارها التي تأتي بها من الكتب والروايات والأفلام الرومانسية، فتسترد عافيتها، وإما أن تظل تتعذب هكذا حتى تفقد صحتها وجمالها.

بعضهن يتحدثن عن أزواجهن وسعادتهن وما أتوا به إليهن في عيد الزواج الفائت أو في عيد الحب البائت، فتشعر بالحرمان، هي لا تريد شيء من ذلك وإنما تريد كلمة رقيقة أو لمسة حانية، فهل يبقي حرمان فوق حرمان المرأة التي لا تعرف السعادة في بيتها والاطمئنان بزوجها والراحة في مخدعها.

****

يلذ للإنسان أحيانا أن يتحدث عن تعاسته وسوء حظه أمام الآخرين، كأنه يتفاخر بتواجد مزية له على أقرانه، وكثيرا ما يفعل ذلك ليستدر عطف الآخرين، أما هي فكتمت كل شئ، كعادتها، فبعض البشر يفضل الصمت حد الكبت؛ تصمت وتصمت وتصمت، كما الكثير من النساء، تستخدم الصمت كسلاح تدافع به عن خصوصياتها، تظن أنها يمكن أن تسير وحدها في هذه الحياة، دون الحاجة لأحد بجوارها، روحا تستند إليها ونفسا تعيد إليها نفسها كلما عاندتها الحياة، إنما هي تعيش لهدف واحد وواحدا فقط، هو طفلها، فتصير الأمومة لعنة عليها وعلى روحها.

لم تعد تقوى على القراءة كما السابق، فقلت قراءاتها تواليا، وكثر وقت فراغها، انشغلت أكثر - بالفيس بوك والواتس أب - تحدث أقاربها وصديقاتها، يظهر عليهم طيش السعادة ويظهر عليها حزن المكلوم، تعيش من أجل إكمال العمر فقط، فقد مات الكثير منها ولم تعد تهتم سوى بطفلها يكبر أمامها وتجد فيه سلواها، وأما زوجها فهو بالنسبة لها حاضر عائب وغائب حاضر، وكلاهما متعب للنفس مثقل للبدن، فقد ملت الشجار حتى إنها لتتركه يتحدث ويلقي عليها بأسباب تعاستهما، فقط ابتسامة يأس تحمل من اللاكتراث ما يكفي ليغلق فمه.

هو يأخذ حقوقه كاملة فإن لم يكن بالذوق كان بالقوة، وما تستعجب له أنه يطلب منها أن تكون له قمة في كل شيء ولا يكون لها أي شيء، وأن تعطيه كل شيء ولا يعطيها أي شيء،

وإن هو أعطاها بعض الشيء أعطته هي كل الشيء، ولكن ما أقسى وما أجهل بعض الرجال.

إنما هي أيام تمر وساعات تمضي، تشابهت الشهور على اختلاف الأيام، وكل يوم يزداد الجفاف أكثر بواقع الاختلاف في الطبيعة والمزاج والذائقة.

تسمع زوجها يحادث أحدا في الهاتف، مازالت متأثرة بالصورة، يبدو لها أنه يحادث امرأة، لم تشغل بالها، وقالت: فليتصرف كما يشاء وليكن بعيدا عني، فهي تشعر أنها أرملة وتنظر إلي تتالي الأيام والشهور من دون أمل، إنما هي حياة مثقلة بقسوة الوحدة الروحية، ومرارة الاحتياج العاطفي، ولكن لشعور الأمومة حلاوة كافية تعوض مرارة الاحتياج ولو قليلاً، فمن اجل الطفل تنسي الأم كل آلام حياتها، وكأن بهذه العاطفة تحمل بداخلها الجنة والنار معا.

****

تدوي صوت مكبرات الصوت، يشاهد أحمد من الشرفة، ذلك الصداع المزمن الذي أعتاد عليه الناس بطريقة جعلتهم لا يلاحظون كم الأضرار التي تسببها لأذانهم ولأرواحهم، تتلألأ ألوان كثيرة من لمبات ملونة بألوانا مختلفة، تضئ وكأنها قوس قزح يرتسم في نهار ممطر، يأتي الشباب والفتيات والأطفال والسيدات ليشاهدوا العروس، تعقب السيدات، وتتمني الفتيات.

يرتدي الشباب والبنات أفضل الملابس، لابد من الذهاب للفرح في تأنق لافت، مهما اختلفت الطبقة والمستوي، تبقي الأفراح والحفلات فرصة جيدة للفتيات لخطف نظر فارس الأحلام، لذا لا بدَّ أن تكون في كامل سلاحها، أوليس سلاح المرأة زينتها، أيضا تعتبر فرصة لبعض الشباب ليروا فتيات جديدة لم يروها من قبل، أو ليسترقوا النظر إلى تلك الفتيات ويتحادثوا مع هؤلاء أو يكون هناك ميعاد مسبق للقاء في هذه المناسبة، أو يكتفون برؤية الرقص على خشبة المسرح، ولا بدّ في كل فرح وخاصة الشعبي منه أن تنشب مشاجرة تعكر الصفو ولو قليلاً، فهذه بسبب الحشيش الذي يثقل دماغ البعض، وتلك بسبب الراقصة التي تسيل اللعاب، وأخري بسبب التدافع أو التلامس بين الشباب والفتيات، والذي كثيرا ما يكون مقصودا أو مرتب له.

قامت روفيدا لترقص بفستانها الأبيض الذي كاد ثمنه أن يتسبب في مشكلة كبيرة، رغم الإنهاك ترقص متوردة الوجه ترتسم على وجها كل علامات السعادة، هناك دائما رابط يجمع بين السعادة والرقص، فالرقص هو الفعل الوحيد الذي لا تمارسه

إلا وأنت في قمة سعادتك، وكلما كانت العروس أجمل كانت النظرات لها أكبر وتتسع حدقات العيون لتعبر عن مكنون النفوس، فنظرة الفتيات تختلف عن نظيرتها من السيدات والتي تختلف بدورها عن تلك التي تصوب من عيون الشباب، وهناك البعض الآخر الذي لا يهمه من العرس شيء سوى ذلك - الجوينت- .

إنهمك سامي العريس في الرقص، وهو لا يحسن حركات الأقدام والأيدي، ولكن ذلك ليس بالمهم، المهم أن يرقص، ومن قال إن كل من يقوم بعمل يجيده، سالت قطرات العرق من جبينه معبرة عن مقدار المجهود الذي بذله، لا، لا يجدي نفعا استعمال المناديل، سيرقص مرات أخرى، لابد أن يرقص حتى تتقطع أوصاله، وتحرق المعدة من عظامه لتعوض مقدار الطاقة التي يبذلها، فهو عريس ولكنه يتصرف كما القرود فوق الأشجار، لا يجوز أن يتعب من الرقص فذلك ليس مؤشرا جيدا بالمرة وتبقي هي ليلة في العمر، فلابد أن يرقص حتى ينسطل الحشاشون ويغادر المعازيم وحتى يوشك بنطاله على التقطع من الخلف!
فأصدقاء العريس يقومون بعمل جليل له، بل أنه أهم واجب يقدموه اليوم لصديقهم ليلة زفافه، بدأت هذه الحركة للتعبير عن التحدي من قبل الجيش الإنجليزي تجاه نظيره الفرنسي بعد معركة قلب فيها الإنجليز الهزيمة إلى انتصار بعد قطع الأصبع الأوسط للأسرى الإنجليز، ثم استخدمت عند الغضب ثم ذاد عليهما اللهو والضحك والان صارت للتهنئة، بل صارت من

لوازم الفرح بالضبط كما الحشيش، وباتت السيدات والفتيات تتساءل أصحيح ما نرى؟ أم يخيل إلينا؟
وأخيرا زفا العروسين إلى بيتهما، بعد أن رش الملح عليهما مين عيون الحساد.

كانت الأم تريد فعل هذه العادة المشينة، بأن يخرج دم البكارة على منديل لتخرجه في الصباحية أمام الناس، ليشهدوا شرف ابنتها، لم يقبل سامي كلام الفتاة ورفض طلب والدتها، فهكذا شيء غير منوط بأحد خارج الزوجين أن يعرفه، وقال إن هذا الفعل عارا يندى له الجبين ولا يفعل ذلك إلا جاهل أو عديم الحياء، وكان هذا أول طلب يرفضه لها في حياته الزوجية، ولم تفعل الأم شيئا عندما علمت بذلك سوى أن لوت شفتيها برما.

****

جلس ثروت وزينب بعد مشاجرة خفيفة يتعاتبان، وإن كان بداخل كلا منهما كثير من الطيبة فإنها مندثرة تحت غطاء من عدم القبول وتحت سحابات من العصبية، وهكذا ظلت العصبية توخز في قلبيهما كلما انفجر أحدهما في الآخر، والحياة التي يسودها العتاب واللوم والجدال حتى في الأمور التافهة الصغيرة لا تستقيم ولا تصفو فيها النفوس، وإن صفت فهي كموجة في المياه بعد أن تلقى فيها شيئا ما، ما تلبث أن تعود سريعا إلى عكارتها وتنغيصها المعتاد.

ومن أجل لا شيء تدب المشاكل، ويدوي الصوت عاليا، وفي غالب المرات على أمور صغيرة، وهناك العديد من المشكلات التي لا يكون أحدا فيها مخطئا، ويكون الطرفين على صواب، ولكن الإصرار والتعنت وعدم الرغبة في تقديم التنازلات يزيد من خطورة هذه المشاكل ويجعلها تستطرد في النمو.

لم يتعلما كلمة التجاوز، فكانت حياتهم في أغلب الأوقات زوجة تسفه من زوجها وزوج يسفه من زوجته، تلك سليطة اللسان وذاك قوي الأيدي، هي لا تتغافل وهو يتعاظم، هي تعاتبه كثيرا وهو يعاتبها طويلا، وعلى أتفه الأسباب، وكثرة العتب توصل إلى التعب والضجر، هو يضربها على أهون الأسباب، وهي تكيل إليه الذم والتقليل في أقل الأمور، فلا هي تشفق عليه في الغلاء ولا هو يغدق عليها في الرخاء، تريد أن تتم أمورها حتى لو كانت بقطع رقبته، ويريد قطع رقبتها لكي تحل عن سمائه، وكل ما يحتاجه الرجل ويسعده في بيته هي القوامة، وكل ما يسعد المرأة وتحتاجه هو الرفق، وكلاهما افتقد ما يحتاجه شريكة، فإنما هما الاثنين متلائمين ومتماثلين، كلا منهما كان

قادرا على تنغيص حياة شخص آخر، والآن كلا منهما ينغص حياة شريك يشبهه ويستحق ذلك.

وجلست تستذكر شيئا من الماضي وتلوم ثروت عليه، ولكن بينها وبين نفسها فقط، لم يكن أحدا من إخوة ثروت ومن البداية يحب زوجته، لا لشيء سوى أنه دائم الشكوى منها ودائما ينعتها أمامهم بأشنع الصفات وأقبح الأوصاف، ويعدد عيوبها ويبرز ردودها وأفعالها السيئة خاتما كلامه بلهجة الضعيف المستكين: وماذا أفعل معها؟
ونصحوه كثيرا بأن يطلقها، وهناك ألف فتاه ستقبل به، بل إن أخته قالت له على عروس بنت حلال لديها خمسة وثلاثون عاما مازالت بكرا وستقبل به دون شروط، ولكن في الحقيقة كان كراهيتهم لها نابعة من مسارآخر، كانوا يكرهونها لأنها لم تكن تتحمل كلمة منهم تحمل في طياتها إهانة، وفى البداية كانت تحذر ثروت زوجها من أنها سترد عليهم بنفس طريقتهم وستجرحهم بكلماتها كما يجرحونها بكلماتهم، ولكنه كان سلبيا لم يتدخل إلا ليدينها في كل مرة، ويلقى باللوم عليها ويوبخها أمامهم ويهددها بالطلاق أمامهم ومن أجلهم سواء كان الخطأ يقع عليها أم لا، فكانت نظرات التشفي تقطر من أعينهم، وكلمات الشماتة تنساب من أفواههم، وكانت هذه الأفعال سكاكين تنغرز في أعماقها، فلم يخلق لها من البداية جوا من الحماية، فخلقت في داخلها جوا من النفور تجاه أخوته، فكانت تبادلهم الكراهية وتبادلهم الكلمات الغير لطيفة والتي تحمل رسائل غير ما تبدو عليه، كانت أخته دائمة الخلاف معها كلما سنحت الظروف وعليها أن تطيعها، وكانت وكأنها تتعمد أن

توقع بينهما كثيرا بأفعالها وأقوالها، فكانت أفعالها الوقود التي تشعل به المشاكل بينهما، وكانت كلماتها كالبنزين تلقيه على النار فتزداد اشتعالا، كانت تشعر أن أخته تحاول أنه توقع بينهما بدافع الغيرة وقالت لزوجها كذلك، ولكنه ما كان ليعبأ بحديثها، وكان يسمع كلام أخوته ويتركها ـ تأكل في نفسها ـ، أخبرها أنها اذا لم تتعامل مع أخته بطريقة جيدة غير هذه، وإن لم تتحدث معها بطريقة تناسب كونها عمتها فلن يحدث خيرا، ولهذا ما عادت تتعامل مع أخته سوى بسلام بارد وتحية جافة حتى انقطعت أواصر العلاقة بينهما.

****

كان كل فرد من الأبوين يحاول كسب الأبناء في صفه، ويحاول تشويه صورة الآخر أمام نظر أبناءه ليظفر بالحكم المحبب للنفس، أن الطرف الأخر هو المخطئ وأن تصرفاته رد فعل وهو ضحية لأفعال الأخر.

وتحكيم الأبناء في المشاكل التي تنشب بين الآباء فعل مشين، حيث لا يحق ولا يجدر بالابن أن يصدر الأحكام على والديه، ولا يجب أن يتعرض إلى هذه التجربة التي ستجعله يضع أخطاء أبويه تحت عدسة مكبرة، فتشعل جحيم الغضب تجاه أحد والديه، حتى الطرف الآخر وبمرور المرات التي يستخدم فيها الطفل عدسته لا يسلم أيضا من النقد.

كانت سلا تستنفذ وقتها في ساعات تقضيها على الفيس بوك تتحدث في صفحات المشاكل الاجتماعية، فالنساء جعلن من مواقع التواصل أداه لبث أحزانهم ومشاكلهم الشخصية، وبل أسرارهم الزوجية؛ يفتقدون لغة الحوار في البيت فيجدونها على الإنترنت، لسبب بسيط، أن هناك من يستمع ويفهم الأمر من وجهة نظرهن ويحاول مساعدتهن لا فرض رأيه، كما أنّ الإنسان يحب جدا أن يتحدث عن همومه للغريب.
وقلة الحوار والتواصل في الحياة الزوجية يؤدي إلى سريان الطاعون إلى العلاقات الأسرية والزوجية، فبدلا من معالجة الأمور والبحث عن حلول نلجأ لبث أحزانا لمن لا نعرفهم على الشبكات الاجتماعية.
وكانت تتكلم أوقاتا كثيرا وكأنها طبيب لا مريض وكأنها تعيش في بيت سعيد لا كئيب، الجميع يري في كلامها عين الصواب، وهي ترى فيه عين الاحتياج.
بمرور الوقت تغيرت لهجتها وقلت أحاديثها، تعرفت على شاب وكثرت الرسائل بينهما، وكان هذا الشاب يعرفها تمام المعرفة فهو يعمل قريبا من بيت زوجها - كما أخبرها-
توالت الرسائل والمحادثات، حدثها أنه أفتتن بتفكيرها حتى إنه يشاطرها الرأي في الكثير من الأمور وعلى سبيل المثال في عدم التسرع بالزواج والتمهل كثيرا عند الاختيار، والحرص على اختيار من يلائمك نفسيا وعقليا.

حدثها عن أنها تبدو عليها علامات الحزن وعدم الرضا عن حياتها، وأنها لم تعد كما كانت، توطدت الصداقة بينهما وتصارحا على بعض الأسرار، حدثته عن بعض مشاكلها

الزوجية التي تؤثر على نفسيتها وقد أفرطت في إظهار مشاعرها، فحدثها أن زوجها لا يقدر النعمة التي في يده، كان يقول لها إنها لا تستحق كل هذا الإهمال، وأن زوجها يسئ إليها كثيرا، لم تستطع مغالبة جاذبية أحاديثه، وعطفه عليها وإشفاقه على روحها، والتئام أفكاره مع أفكارها، فكانت تنتظر اللقاء اليومي ملهوفة متشوقة، حيث كانت تخاف ألا يتاح لها لقاءه اليومي من خلف الشاشات، فقد كانت تشعر بالغربة في بيتها، وتستشعر الوحشة مع زوجها، فكانت تسرّي الوقت بمحادثته، وكأنها تستعيذ به من واقع حياتها البائس.

****

وفي إحدى المواصلات كانت تحمل طفلها على يديها وتجلس مهمومة مكدورة وقد أخذ الحزن منها نضارتها، بالإضافة إلى إهمالها لأناقتها وزينتها، وإذ بشاب وسيم حسن المظهر بهي الطلة ذكي الرائحة ذو شعر أسود مصفف إلى الخلف، وبعينين بنيتين، له منظرا وهيئة ينمان عن ذكاء وفطنة، يدخل وهو ينظر إليها وعلى وجهه ابتسامة خفيفة، يترك الكراسي الشاغرة ويجلس بجوارها، برقت عينيها بهذا الفعل المفاجئ ورمقته بنظرة فاحصة وركزت عليه والدهشة تعقد لسانها، نطقت عينيها بإن تصرفه يعد وقاحة وتهجما.
سلم عليها قائلا: كيف حالك يا سلا؟
زاد استغرابها حتى عقد لسانها، لم يمهلها الوقت، قال باسما: ألا تعرفين من الذي يحدثك؟، ولم تكن تدري صوته في الواقع

كيف يكون، قالت مستفسرة وفي صوتها قلق وريبة: لا، من أنت؟، وحينما كانت تركز في ملامحه وكأنها تستذكر هذه الملامح أفرجت عن ابتسامة خفيفة، ابتسامة تملؤها الدهشة والاضطراب، عرفته، عرفته قبل أنها يخبرها أنه رمزي، فغرت فاها الصغير وبرقت عينيها العسليتين الواسعتين وأصبحت تعلوها علامة الدهشة والتخبط والحرج، التهب وجهها بحمرة الخجل وتسارعت أنفاسها وتهدجت وكأنها تفور كغليان الماء في مرجله، ثم استردت أنفاسها، وأصبح وقع كلامه عليها كفاقد الذاكرة الذي يستعيد رشده أو كما يستعيد النائم صحوه، وحل بحديثه عقدة لسانها، حتى تبادلت معه أطراف الحديث، حاولت أن تقول كلمات كثيرة وتسأله أسئلة كثيرة فاضطربت الكلمات على لسانها وذابت كما يذوب السكر في الماء.

سألها مبتسما: إلى أين أنتِ ذاهبة الآن؟ وأين سيارتك؟ أجابت في هدوء: إنني عائدة إلى البيت، والسيارة بها عطل.

رد عليها مازحا: يبدو أن كل السيارات بها مشاكل هذه الأيام.

وهكذا استمر الحديث بينهما عندما تصمت ولا تجد ما تقوله كان صوته ينقذها من هذا الصمت المهيب التي كانت تذوب فيه كلما انقطع الكلام وكلما نظرت حولها تحاول دفع الريب عنها بإبتسامة ساذجة، يخبرها أنه يراها كثيرا في الطرقات ولم يكن يريد أن يعلمها بذلك، وذلك لأنه يعمل في المبيعات في مصنع الملابس الموجود بالقرب من هنا وأخبرها عن عمله وعن المصنع الذي يعمل به.

وكان هذا اللقاء كفيل باسترجاع اتزانها فتحركت مشاعرها الأنثوية، وبدأ يعلو صوت الأنثى بداخلها وينتصر على صوت اللاكتراث، وكأن اللقاء كان مفتاحا لأنثويتها التائهة، فقد لمعت في عقلها أفكارا لا عهد لها بها من قبل، فلأول مرة تخجل من نحولها وشحوبها وعدم اهتمامها بأناقتها وزينتها.

كثرت الرسائل بينهما وتطورت المحادثات وتغير الأسلوب بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن، ودائما هناك لحظة فاصلة في حياتك، تتغير فيها طبيعتك وتتبدل فيها نفسيتك ولا تصير كما كنت، تختلف اختلافا كليا حتى قد يظن الناس أنك لست أنت، فصارت تهتم أكثر بلباسها وزينتها وتبدو في كامل أناقتها كلما خرجت من البيت، وردت الحيوية والنضارة في وجهها وروحها، وهي لا تعي ولا تفهم في أي طريق تسير، فإنما هي ضعيفة منقادة بفعل العاطفة والمعسول من الكلام والحلو من الأوهام والتقدير المحبب للنفس وتوافق الطبيعة المثير للمشاعر.
وإن هي إلا أسابيع أو تكاد حتى طلب منها لقاء فيه هنائها وسعادتها، وإن هي إلا أيام بعد ذلك حتى أكلت نيران الرغبة قلبها فوافقت.
فلقاء في مكتبة لتأخذ منه كتاب كانت تأمل أن تجده ومناقشة تبدأ ثقافية وتنتهي عاطفية، لم يكن ممن يقرأ مثل هذا الكتاب، ولا يعرف ما يدور به، ولكنه يعرف كيف يدور بها، فكان يقول لها وهل هناك أكثر فتنة من فتاة تقرأ الكتب، فالأنثى التي تهتم بعقلها تضيف لجمالها بعدا آخرا، بالإضافة إلى أنها تظل دائما صغيرة ومتجددة، لا يفوتها الزمن ولا تدهسها أعباء الحياة.

فتعود من اللقاء ليست كما كانت، وكأنها تبدلت ليست فقط في ملامحها ولا ملبسها وزينتها التي أثارت تعجب زوجها، بل حتى إنها تغيرت روحيا، وبدت عليها علامات السكينة والسعادة، فالإنسان كما الأزهار يتفتح ويتورد كلما فاضت روحه بالسعادة.

****

تواصل حديث سلا مع رمزي، وتطور إلى مرحلة المكالمات الصوتية، أحست معه أنها تطير خلف السحاب وتحلق وراء هذا الكون، وبعدما كانا يتحدثان مرة كل بضعة أيام، صارا يتحدثان يوميا ثم مرتين في اليوم ثم ثلاث مرات حتى بدت المكالمات لا تنقطع على مدار اليوم، حتى وزوجها في البيت، بدأت تحبه والحب مسئولية والمسئولية تفرض التفرغ العاطفي والاستمرار دون استسلام للعوائق، يتحدث معها وفي الخلفية صوت أم كلثوم ينشد أعذب الأغاني التي لن يجود الزمان بمثلها، يخبرها أن وجهها يمتلئ ويزداد حلاوة ونضارة وتورد كفتاة صغيرة لم تتزوج بعد، ويصر على أنها لم تتزوج بعد، ويخبرها بأن صوتها يزداد رهافة ونقاء والأهم أنه يزداد سعادة ولهفة.
فصار الهزيع الأخير من الليل شغلهما الشاغل، وهدفها في اليقظة وحلمها في المنام؛ تقضى شطر الليل ساهرة معه لا

تحفل بالنوم ولا تكترث له، فهي تبيت الكثير من الليالي بمفردها تحتضن وسادتها التي تشاطرها الهموم والأحزان، فأنار بأحاديثه لياليها المظلمة، وأخذت تحاسبه في طويتها على التأخر وأخذ يجترأ ويعاتبها على انشغالها عنه، حتى أصبحت تتمني أن يتغير بها الحال ويتبدل الأشخاص ومكانتهم في حياتها؛ فهي كغيرها من بنات حواء تسعي إلى أن تجد من يحنو عليها ويهتم لها ويشعر بها حتى من صوتها بل من دون كلام، فالإنسان يحتاج إلى الحب والاهتمام لا لشيء سوى كونه إنسان، لذلك كان لها كالشاطئ في عيني غريق بدأت روحه تفارقه، فرأى أملا بازغا فتنشطت كل آماله ورغباته.
وصارت تحتضن وسادتها بلهفة أكبر، وتتخيل الوسادة سعيدة فرحة عكس الأيام الخوالي التي كانت تأن فيها من سيل الدموع التي ينهمر عليها يوميا ، وتشعر بصرير السرير أكثر فرحا عن ذي قبل، فقد كانت تشعر بصرير السرير سابقا وكأنه يتلوى كلما تلوت كأنه إنسان يجلد من فرط تقلباتها.

****

لأول مرة تغضب حين تعرف أن زوجها يحادث غيرها، كانت لا تبالي ولا تكترث أما الآن فسيطر عليها الغضب وخرج من

عينيها نارا تحرق ولا تضئ، فالعلاقة الافتراضية تضعف العلاقة الحقيقية تلك التي لا تحتاج إلى ما يضعفها.

تسترق السمع وتعلم أن زوجها على وشك الخروج، تشعر أنه ذاهب إلى إحدى نزواته، تتأكد حينما تجده مهتما أكثر بهندامه، مستعطر بأطايب العطر، يفتل شاربه، ويغني في مزاج رائق، ورغم أنه دائما ما كان يجلس في البيت حينما تأتي أختها لتزورها، لكن هناك شيء ما دب في قلبها، إنها الحاسة السادسة غريزة المرأة التي لا يمتلك الرجل شبيها لها.

تسيطر عليها الرغبة وتحاول التأكد مما يفعله زوجها، تخرج خلف زوجها، وقد أخذت سيارة أختها قائلة لها أنها ستذهب تأتي بشيء وستعود سريعا، حتى وصل إلى عمارة ما، ونزل وسلا تسير خلفه في خفة ولهفة طفل يود أن يصل إلى لعبته، لا تشغله الشواغل ولا يحيده عن هدفه أي شيء.
ثم فكرت لما كل هذه اللهفة والرغبة في تأكيد ما يبدو لها جليا، هل هذه غيرة، أجابت نفسها ضاحكة وهل هناك غيرة بغير حب، ثم تساءلت متعجبة: إذا ماذا بي؟

تحيطها الأفكار وتدور في عقلها حتى تكاد تلغي الوجود من إدراكها لماذا تريدي دليل قاطع يا سلا؟، هل ترغبين في إيجاد مبرر لتصرفاتك؟ هل تحاولين إثبات ذلك عليه فيكون لكي الحق فيما تفعلين؟، هل تريدين وجود دافع لكي تنتقمي.
غفلت عن خالد، دخل العمارة ولم تعرف إلى أي دور صعد وفي أي شقة دخل، وإلى أي هدف ذهب؟

****

بدأت سلا في اللين، ظاهريا لترضي رغبة رمزي وتحنو إلى إصراره، وباطنيا لترضي رغبتها فقد استحر الشوق في قلبها وملك رمزي عقلها، فقد أثلج صدرها بحديثة، وهدأ روعها

بإشعارها بقيمتها، فلا أهم من الشعور بقيمة وجودك في حياة أحدهم، الشعور بأنك تدور داخل عقل شخصا ما، أو تمتلك قلب شخصا ما، لا كأنك إنسانا كئيبا مملا ومريضا نفسيا.
وكانت تستمع إليه كأنها طفلة صغيرة تستمع لمن يخبرها حكايات قبل النوم، ويحكي لها الأساطير التي تريد أن تعيشها، ويصف لها المشاعر التي تريد أن تشعر بها، ومهما حاولت أن تظهر التمنع، تتضح اللهفة عليها، فالنفس دائما ترغب في الازدياد حتى لو أظهرت التمنع وحتى لو تحايلت على إخفاء رغبتها ونوازعها.

أحست بلون جديد من السرور يدلف إلى قلبها، ولعبت الهرمونات بعقلها، ارتفع الدوبامين فذادت السعادة، ارتفع أكثر فجاءت اللهفة متبوعة بالشوق، واصل تقدمه حتى أتت الرغبة في رؤية المحبوب، فشربت كاسات الحب حتى الثمالة.

تعلم أنها تعلقت به عاطفيا، فالتعلق ليس بالحضور وإنما بالشعور، والعلاقات لا تقاس بالطول وإنما بالأثر، وقد يكون بجانبك شخصا لسنين طويلة، يأكل معك على سفرة واحدة وينام بجوارك على نفس الفراش ولا يشعر بك ولا يستطيع أن يفهمك أو أن يصل إليك، وقد يفهمك ويعلم ما يدور بداخلك من صراعات ذلك البعيد الذي لا تراه، فإنما هي اختارت ولم تحب والآن تحب ولن يتاح لها اختيارا.
وأمست حياتها جنة ونار في نفس الوقت، جنة وفردوسا خصيبا عندما تكون مع رمزي حتى لو في خيالها، وجحيما مستعرا ونارا متقدة عندما تصبح بجوار خالد.

وكانت تتساءل: هل فات الأوان؟، أم لم يحن الوقت بعد؟، أم ما زال الاختيار متاحا؟
وأصبحت مضطربة تُسائل نفسها: لا أعلم إن كانت النساء تجد الرجل المناسب بعد فوات الأوان؟ أم هي التي استعجلت الأوان؟، أم أن الحياة لا تأتي بالشخص المناسب إلا في الظروف الغير مناسبة؟، وهل دائما ما يأتي الحب في الوقت الخطأ؟

هل حقا فات الأوان؟ وأكملت ودموع الحزن تنساب على خديها، هل الحياة دائما هكذا؟، يكون الأوان قد فات حينما تصلنا الأشياء الجميلة.

أخذت الحيرة عقلها وجلست تحادث نفسها وفي داخلها تشتعل نيران لا تدور أفكار، فتنازعت الأفكار وتدافعت الدوافع وتشابكت النوازع والرغبات، حتى صار ذهنها وكأنه ميدان معركة.

الندم، تلك الكلمة البغيضة التي تكدر كل حياتي سواء اخترت أم لم أختر- قالت بحنق -
تعلم في قرارة نفسها أن الخاسر الأول من كل ذلك هي نفسها، فلا هي ترغب في الاقتراب أكثر لتحترق ويحترق الجميع بنيران ملتهبة هائجة ثائرة تلفح حتى من يفكر بها، وتعلم أن هذه النيران بدأ الشرار يدب فيها، ولا تقدر على الابتعاد لتجمد في برودة حياتها وبيتها بعدما وجدت حرارة الشوق طريقا إلى قلبها.

لا ينتهي هذا الحراك النفسي الذي يصطرع في داخلها، ولا ترسو سفينتها في ميناء، بل تظل تتقلب وتغدو وتجئ بفعل أمواج هادرة، ورغبات ثائرة، وفى النهاية أطبقت جفنيها برما من كل هذه الأفكار وهزت رأسها رافضة وكأنها تطرد هذه النوازع، ثم مسكت الهاتف وبحثت في دليله.

وفى صباحية العرس ذهبت والدة أحمد مع من ذهبن إلى العروس وجاءت منبهرة لتحكي لولدها عما رأت.

فتزاحمت الأفكار في رأسه وأحاطت بوجدانه حتى امتلكت عقله، تزوجت روفيدا تلك الفتاة الصغيرة التي لم تتخطى السن القانوني، في جهاز مهول تتكلم عنه نسوة الشارع بأكمله، جهاز يكفيها العمر كله بل تموت قبل أن تستخدم بعضه؛ بل جهازا يكفي لعروستين أخرتين، يكفيك الحديث عن ذلك النيش الضخم الذي يستخدم كمنصة عرض لقدرات أهل العروسة، أو لنقل لكي يشبع رغبة النسوة في التفوق وإظهار الأفضلية، أعتقد أن أبسط تحليل لذلك هو ضعف الثقة أو الإحساس بالدونية ومحاولة تعويض ذلك في شيء يستجلب مديح بعض الناس ويستهوي البعض الآخر ليكون مثلهم، أو يأتي بما أتوا ويضرب بهم المثل؛ مثلما ذهب إليه هيجل في ما أسماه جدلية السيد والعبد حيث أختصر الدافع إلى الحرب في حاجة الأنا إلى اعتراف الآخر به.

فالإنسان بطبعه وخاصة النساء تشتهي أمورا كثيرة، ليس بسبب أهميتها؛ ولكن لأنها مدفوعة نحوها دفعا بفعل التنويم المغناطيسي الذي يسمي الفكر الجمعي، فما إن تستنام له وترتضي به، لا ترى تفاهة هذه الأمور وعدم استحقاقها كل هذا الصراع والعناء، وكل هذا العبث الذي لا يدر علينا سوى مسحوق الشقاء وخلاصة المعاناة.

ولكن الرغبة والبحث عن القيمة الذاتية في عيون الآخرين؛ تدفع الإنسان لكي يقبل على هذا العناء وذلك الصراع وتلك الأعباء حتى وإن كانت لا تجديه نفعا، ولكن يكفيه أن يتهامس عليه الناس ويصبح حديث بعض المجالس.

الأنسان يسعي إلى إثارة إعجاب الآخرين، ويعلم أن ذلك لا ينفعه، ولا يعود عليه بشيء، بل قد يضره، ولكنه يصر على

تحمل الأعباء واجترار العناء تحت تأثير التنويم المغناطيسي الذي يسمي المجتمع، فيسير مع التيار كما السمك الميت، والكارثة أننا نسير مع مجتمع غارق في حب المظاهر، وتركنا عقولنا وسلمناها لمجتمع يعج بالحمقى، فدائما من يقود مجتمعنا هم الحمقى، وكأن الناس لا ترتضى سوى بالحمق مرشدا.

هي نظرات لا يقرأها سوى النساء ويفسرنها كما يحلو لهم، لا أعلم إن كان تحليلي صحيح أم لا، ولكن أي ما كان تحليل مثل هذه الأفعال فإنه لا ينم عن خير أبدا، فإن لم يكن نفسيا فإنه سينتج كوارث اجتماعية أخرى خاصة في ظل الغلاء المستوحش في البلاد ولنا في حالة أسماء عبرة.
يستمر عقله في البحث والتساؤل:
ماذا يعني بالنسة للطبقة الوسطى أو حتى الفقيرة أن ترمي ثلاثون الفا في مجموعة من الزجاج ولا تستخدم هذه الأشياء إلا للعرض، ممنوعة من اللمس وكأنها في طريقها إلى التحنيط، والقليل منها يخرج للضيوف المميزين والمميزين فقط لكي نثير إعجابهم، آه لكم يعاني البشر من داء الغلو.
ماذا يعني أن ترمي الأشياء تحت الآسرة لكثرتها وفائضها عن الحاجة، ماذا يعني أن يختلف أثنين كان يجدر بهما أن يكونا آباءً لطفل يحمل دمهما على بعض أثاث البيت أو على شاشة أو ثلاجة لغرفة النوم أو ما شابه كما نسمع.
ماذا يعني أن يصير زواج البنت حملا ثقيلا على أبويها ويستعيذا بالله من هذا الحمل ويستعدا له بشقي السنين الماضية وقوت السنين الآتية، ولا يتم العفش إلا بالديون، أما العريس ذلك الذي يكد ويتعب حتى يأكل الشقي عمره لكي يبني بيت

وكأنه فندق خمس نجوم لكي يحصل على أبسط حقوقه بل هي حقوقه الطبيعية التي يتحصل عليها الحيوان فور احتياجه لها؛ لا أستطيع التفكير كيف لأنسان أن يبذل قصارى جهده ، لكي يحصل فقط على أبسط الحقوق.

تضيع سعادة اللقاء وجمع الشمل ونشوة الفرح واقتراب الأبدان في المطالب الباهظة للزواج وتوقعات المجتمع ونظرات الناس والديون المترتلة التي تنتظرك، ولهذا أصبح مشروع الزواج مشروع استدانة، وأصبح المهم ليس فعل الزواج ولكن قيمة الزواج، نبني في الظاهر وليس الباطن، فلم نعد نعرف قيمة الشيء بل ثمن الشيء وشتان بينهما، ثم بعد ذلك نحمل أعباء سوء اختيارنا.

يظل الشاب حتى الثلاثين من عمره يكافح من أجل حقه، كيف يهنأ هذا الشاب بشبابه وكيف يسعي إلى حلم ما أو هدف كبير أو تفكير وبحث في موضوع خطير وهو قد انتصف عمره ومازال يركض خلف ما يجلب له جنيهات أكثر لكي يبدأ مشوار الاستقرار، كيف يتعلم شاب خاصة المتعلم أو من يجدر به أن يضيف إلى بلده ويجرب ويخطئ، وهو كل يهمه ما يدر عليه جنيها أكثر.

وتظل الفتيات تنتظر حتى يكوّن العريس نفسه، فتكبر وتذبل حتى يفوتها قطار به ابسط حقوقها ويبدأ الشاب في التفكير في الفتاة الصغيرة بل وحتى الطفلة كصاحبتنا هذه، فترتفع معدلات العنوسة أكثر فأكثر، مجتمع من الحمقى نعيش به.

ربط الفرح بالناس وليس القلب من علامات البله العقلي، ولكن المجتمع أستخدم تنويمه المغناطيسي وأوقعنا كلنا في بئر من المغالاة في كل شيء دون قيمة، وقد يكون نية هؤلاء المغالون

في أمور الزواج طيبة ويقيسون هذه المغالاة من مبدأ توفير احتياجات الأزواج، إلا أنّ سلوكهم النفسي يقول إن فرحتهم بنظرة الآخرين لهم هي المقياس الأهم وليست سعادة الزوجين، هم يرضون أنفسهم قبل الآخرين رغم علمهم أنهم لن يستفيدوا من جراء ذلك بشيء.

لماذا في بلد من أفقر البلاد في دخل أفرادها أن يبلغ الحد الأقصى في البيت عند الزواج، لماذا لا يبني الزوجين عشهما معا سويا يدا بيد، نقطة عرق بأخرى، قرشا على قرش كما فعل أبوانا، فيزيد الترابط بينهم، وتتلاحم أحلامهم كما تتلاحم الأبدان وتتوحد أهدافهم كما تتوحد الحيوانات المنوية بالبويضات في رحم الحياة فتنتج أشخاصا أكثر ترابطا وعلاقات أقوى تماسكا.

أنا لا أعارض ولا أدين فعل المغالاة في تكاليف الزواج، فكل فرد يفعل قدر مستطاعه وأكثر، ولكن أدين ما يترتب عليه من معاناة، فقد أطلق المجتمع هذا الوحش فنشر الجنون حتى أصاب السمك الصغير، وذاد في جنونه حتى أصبح يريد مناطحة السمك الأكبر منه، فذاد أعبائه عبء ومنغصاته فرع اسمه تكاليف الزواج، فهل بات المجتمع البشري يقر بتفوق قيمة المادة على قيمة الإنسان؟

وهل حقا صارت المادة تسوق الحياة دون اعتبار للأخلاق أو الدين أو اختلاف الظروف والأحوال، فلماذا نصعب الحلال ونفتح باب للشيطان ينفث فيه سمه هذا السم الذي أدى بالبلاد إلى تصدر قائمة كل ما هو جنسي من تحرش واغتصاب ودخول على المواقع الإباحية واغتصاب الأطفال الذي استشري في البلد بكثرة، وبعثر أوراق مجتمع يظن نفسه متدين بطبعه، أي دين، ومازالت الأغلبية تصدق هذا، فما أكثر

الحمقى، وما أقسي أن ننقاد خلف البلهاء، لا لشي سوى أنهم أكثرية، فقد بدأ هذا المجتمع يستبعد الدين شيئا فشيئا من الحياة، إستبعده من المناهج التعليمية، بعده عن بعض التجارات المحرمة، نبذه في كل شيء يخص السينما، قصم ظهره في الملابس، أضاع قداسته في الحرية، وأخيرا رفض كلامه في الزواج، لقد بدأ المجتمع يفكر في كل شيء بطريقة تستبعد الدين، ومازال يفاخر نفسه بأنه متدين، فكما أصابه العته الفكري، لحق به الحول الديني حتى بتنا كائنات لا ترتقي لأن تحمل قيادة هذا الكوكب.

يفتح المجتمع بنفسه الباب الذي يجلب له المتاعب والمعاناة ثم بعد ذلك يشتكي صعوبة الحياة، أصبح الكثير من الشباب والفتيات في هذا العصر المنفتح، يفقدون من يحبونهم ولا يجدون أنفسهم معهم بسبب الظروف المادية وعدم القدرة على توفير هذه المبالغ الضخمة، واحتياج الشباب الذي غالبا ما زال يدرس أو لا زال يركض خلف إعلانات الوظائف، الكثير من الوقت والكثير من الجهد لكي يستطيع أن يطلب يد فتاة لن يجدر بها الانتظار طويلا، بل إن بعض الشباب الذين يدق الحب في صميم قلوبهم يشعرون بالقلق والتوتر والضغط النفسي بسبب تكاليف الارتباط، حتى باتت أكثر من نصف الزيجات زيجات أبدان لا قلوب، القلوب في مكانا آخر، وما ينتج عن ذلك ليس بالهين.
وألتمعت عينه بأفكاره ثم أردف:

والغريب أنه إذا خالف أحدا هذا الجنون الواقع وذلك العبث المستشري سيصمه المجتمع بالبله، ألا تبا للفكر الجمعي، ألا قاتل الله الانقياد المجتمعي.
ومازال أحمد يفكر ويستعجب ويضرب أخماسه لأسداسه وهو غارق في غيبوبة فكرية ويتساءل:
ولكن كيف؟ لماذا؟
لماذا ننقاد لمجموعة من العواجيز حتى وإن كانوا أهلنا أن يحددوا مصيرنا، وأن نتركهم يلهون بحياتنا وعواطفنا، ألم نجربهم في اللهو بمصير الوطن حتى صار عزبة لا دولة.
لماذا لا نقوم بمظاهرة نصرخ فيها بمطالبنا وبأحلامنا نحن الشباب في الحصول على حقنا بطريقة أيسر من تلك، حقا يحتاج الشباب إلى أن يخرج ليصرخ في وجوه كل تفكير يقف عثرة في طريقهم، يجب علينا ألا نسمع كلامهم ولا نستقي أفكارهم ولا نرتشف رغباتهم فتسمم أفكارنا ونوازعنا، وتلهو بأحلامنا ورغباتنا.

كما أن السعادة قرار عقلي، التفاهم والتوافق والتكيف مع الشريك موضوع عقلي أيضا، ولم يتوصل كلاهما ثروت وزينب إلى التفاهم مطلقا، فالتفاهم لا يعني التطابق في كل

شيء، ولكن يقصد به معرفة ما يفضله الآخر وتحاول أن تفعله وما لا يحبذه وتبتعد عنه قدر الإمكان، والقبول لا يعنى الموافقة على أي شيء ولكن يعنى تقبل الشريك ومحاولة التغيير، وبذلك يتغير الشريك أي ما كانت طبيعته، وبالتالي تتغير الحياة، والتفاهم لا ينال بالقوة وإنما بالتقبل وبالمحبة، وكذلك التكيف الذي ما هو إلا الاقتراب لأقصى درجة ممكنة وتفهم الآخر وتقبله وتقليل الصراعات لأدنى حد ممكن، ولكن البعض يكابر، ويرفض أن يتغير، ويتساءل:
لماذا علىّ أنا أن أتغير بينما هو لا يهتم؟

والحقيقة أنك تفعل لأنك تتأذي من علاقة كهذه، تفعل لأنك تبحث عن سعادتك في الأساس، فإن أعطيت شريكك السعادة والقبول والتغاضي أعادها لك بنفس القدر، هكذا يقول قانون نيوتن الثالث - لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه - ذلك هو كلام الفيزياء، أما كلام المشاعر فإن أعطيت درهما من الحب أو السعادة عاد إليك دينارا، وإذا أعطيت قنطارا من الاحترام والقبول عاد لك مائة، لذلك عليك أن تسعي لسعادتك من خلال إسعادك للآخر، وعليك أن تمنح الحب والاحترام والتغاضي لكي تحصل عليهم، دون شرط من شريكك أن يتغير، امنح وهو سيتغير سيتغير هكذا تكلم العلم، وهكذا يتصرف القلب وهكذا يتعامل العقل وهكذا يقول الله تعالي - في دليل على تغير المشاعر - "فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم " - فالحب يجلب الحب، والحنان يأتي بالحنان، والتفاهم يخلق التفاهم، والتقبل يستدر التقبل، وما

تمنحه يعود إليك بأكثر مما منحت، وما تبخل به يعود عليك أكثر بخلا.

ومثلما قانون نيوتن الأول - فإن الشريك السيئ سيظل سيئا مالم تؤثر عليه قوة خارجية - ما لم تغير أنت شيء بك يساعده على التغير، وفي النهاية يحاسب المرء على تغيير نفسه فقط، وليس على تغيير الآخرين، فالزوج يحاسب على ما قدمه لزوجته أي ما كانت صفاتها، والزوجة تحاسب على ما قدمت لزوجها أي ما كانت أخلاقه، وليس الهدف الأساسي تغيير شخصية الشريك بقدر تغيير استجابتنا له وردود أفعالنا معه.

******

وبمرور الوقت بدأ يوسف ينظر لأبويه نظرات غير لائقة، ويتعامل معهما بجفاء وخشونة، ولا مناص من بعض الكلمات الجارحة والألفاظ التي تحمل التهكم والسخرية، بل تصل إلى العناد والتحدي ورفض نصائح وأراء الآباء وربما تطور الأمر إلى مشاجرات ونزاعات خفيفة بينه وبين والده خاصة، وكان الولد يتساءل: كيف لأب أن يقف من ابنه موقف الناصح أو يرشده لشيء وهو عاجز عن إرشاد نفسه.

على النقيض تماما ربما كثرة المشاكل تعلم بعض الأطفال السلبية واللامبالاة أو عدم الشعور بالانتماء والدفيء الأسري وهذا ما حدث من جانب الفتاة، التي كانت تستيقظ صباحاً على صوت المشاكل والصراع بين الأم والأب، وكانت كثيرا ما

ترفض النهوض وتحاول أن تنام ثانية، وفى بعض المرات تنام فعلا ولكن في الغالب، تظل مستيقظة تسمع صوتهما العالي يهز أرجاء البيت، وتتخيل ما يحدث.

****

أخبرها خالد أن تنتظره، وأنه لن يتأخر عليها كثيرا، فقد أشتاق للأكل من يديها، فحدد لها موعد قدومه.
ومضى الوقت وقد تأخر عن موعده، ولكنها تنتظره، ثم تنتظره، وتنتظره حتى مل الانتظار، وأحست بطول الوقت وكأن الساعة تعاندها، لأن الساعة في الانتظار ليست ستون دقيقة، بل ستون يوما، بل دهرا بأكمله.

دخلت الشرفة، تنظر، تراقب الطريق، تمعن النظر، نظراتها الحيرى تبحث عن زوجها، فلا تجده، وكلما أنقضى الوقت غاض الأمل وانقبضت أسارير الوجه وفقدت الروح شغف اللقاء، ثمة ألم كبير عندما تنتظر من لا يأتي، وثمة الم أكبر ولكنه مقرونا برجاء حين تنتظر من تعلم أنه لن يأتي.
تعاود الاتصال، مجددا لا يرد.

طيف إنسان بدأ يشق الظلام، يسترعي إنتباهها بعض الشيء يقترب أكثر، تأتي رسالة: لن يأتي الليلة فقد أعاقته المواعيد والظروف.
ازداد مقدار آلامها ألما جديدا، وذاد ذلك من خيبة أمالها، فصبت عليه جام غضبها.
جلست تتحدث إلى نفسها:
أنه لمن المحزن أن يفعل المرء كل ما بوسعه دون جدوى.
حجج ومواعيد، هذا ما يهرب إليه الرجال دائما حين لا يريدون شيء، ولو أنها أثيرة عنده لفضل لقاءها على غيره، ولأضبط ساعته على موعدها.

تنشط بداخلها مشاهد الماضي فلا تستطيع الهرب منها، فهل يكون اجتماع الآلام بمثابة الكارثة التي تحل على النفس فلا تطيق احتمالها فتؤدي إلى الانفجار.

برقت عينيها وفتح فمها من المفاجأة، فوقعت رؤيته عليها كمن نزلت به مصيبة، أو حلت به كارثة، تلك الكارثة التي تأتي ونحن في أقصي الاحتياج إليها!
إنه رمزي.

****

يقترب، يراها، ينظر إليها، يدقق النظر، وحدها، يشير إليها بخفة بإحدى يديه، والأخرى تخرج شيء ما من جيبه، لكنها لا تراه، إنما هي تنظر ولا ترى، فقد أصبحت غارقة في بحر من الأفكار استباح كيانها، وأنشأ في وجدانها أمواج هادرة، تسيطر فيها دوافع الحقد والانتقام على دافع العفو أو اللاكتراث.
ورجعت تحدث نفسها:
لماذا دفعه القدر لي تحديدا في هذا الوقت؟
تستطرد وفي عينيها لمعة من شرر وفي قلبها حرقة من تعنت القدر معها:
لا يتلاقى الناس عبثا وإنما لأهداف وضعها القدر، وماذا وضع لي القدر اليوم؟
وبينما هي غارقة في أفكارها إذ بصوت الهاتف يضرب معلنا عن قدوم رسالة، تقرأ: إذا لماذا قلتِ لي سابقا أنك أصبحت لا تحبين الوقوف في الشرفة؟
أغمضت عينها لكي تتيح لعقلها جمع شتاته تدور بعقلها الأفكار، ابتسمت وكأنها تذكرت شيء ثم قالت بهدوء: ما أجمل أن ترى أحدا يتذكر تفاصيلك الصغيرة التي أخبرته بها يوما.
يقطع صوت الهاتف حبل أفكارها، تقرأ رسالة أخرى:
"ولكني سعيد الحظ فقد رأيت الساعة قمرين أحدهما في السماء والأخر في الشرفة".

تدور بعقلها الأفكار وسائلت نفسها هل فعلا تحبينه؟، أم هو احتياج للحب لا أكثر؟، أم هي مجرد هشاشة نفسية تجعلها تتعلق بأول طارق لبابها؟، وهكذا ظلت تصارع الأفكار طوال الليل، وكان الليل طويلا موحشا فلا تكاد النجوم تغرب، وكأن

النهار لا يريد أن يشرق، كانت اللحظات تمر عليها طويلة قاسية باردة، كأن كل لحظة تأتي على عمرها كله، حتى أدركتها رحمة الله فنامت، نامت سلا ليلتها وحيدة، نامت وغيلان الوجع تلتهمها، نامت وهي تحس الآلم يسري في جسدها كمن يسير في الحديقة على نبات صغير فيدغدغ أوصاله.

****

إنقضى يومها، وفجأة سمعت دبيب أحذية ترتطم بالأرض بخفة وسرعة، وصوت رجل يسعل من كثرة الدخان المحتبس في صدره، يدخل البيت في هدوءه المعتاد، يجدها على غير عادتها في كامل زينتها وأكثر نضارة، صافحها في برود وقبلها في تململ ثم أشاح بوجهه سريعا.

دخل غرفة النوم لكي يغير ملابسة، تدخل وراءه تحاول الالتصاق به تحت ذريعة مساعدته في تغيير ثيابه، لا يكترث باهتمامها، فقد بدأت عليها تغييرات كثيرة مؤخرا.

راودتها نفسها بالانسحاب المستند على الإحساس بالمهانة، ولكنها قاومت وخرجا سويا، وجلس بجانبها على طاولة العشاء، أكل، وفقط، انتظرت منه كلمة أعجاب، كلمة تنم عن انه ما زال يراها جميلة، كلمة تنم على أنه يلاحظ تفاصيلها الصغيرة، كلمة تشعرها بكيانها، لم تأكل كثيرا كعادتها مؤخرا فقد عادت شهيتها بفعل السرور والفرح الذي أدخله على قلبها الحب، ولكنها الآن لم تأكل، وكيف يأكل من تأكله المرارة، شعرت بالضيق، وارتسمت على وجهها مشاعر الاستنكار، ولكنها كتمت غيظها وآثرت الصمت.

سألها لماذا كل هذه الأناقة هل كنتِ في الخارج؟
تخبره متعجّبة أن لا
يسألها: إذا لماذا كل هذه الأناقة؟
بعد عناء بلعت ريقها واستجمعت في ذهنها تلك الكلمات التي أعدتها له، محاولة نفض الغبار عن تلك اللقاءات الجافة وكأنهما

موظفي حكومة يذهبون إلى عملهم فقط من أجل تعكير صفو أصحاب الحاجات بتململهم وتأففهم الدائم وأخبرته بغنج ودلال لم تتعود عليه وإنما تحاول عبثا لعب دور الزوجة المتلهفة أنها تتجمل لزوجها هل في ذلك عيب؟
أجابها بلهجة فاترة: لا، لا داعي لذلك، وكان يتكلم باقتضاب وكأن الكلمات تخرج رغما عنه.
فوقع رده عليها ثقيلا كالحبر، يسير في جسدها مؤلما كالسم، ونظرت إليه بعيني طفلة خاب أملها، وأنقطع رجاءها، وبدأت تستفيق، لم تتزين حبا فيه ولا شوقا إليه، ولكنها تحاول دفع الخطأ بالصواب، تريد أن تحتمي به من سيل الأفكار التي تتصارع بداخلها، أن يعيد إليها كرامتها وتقديرها لذاتها ولو مرة واحدة، أن يدفعها بعيدا عن الطريق الذي يرسمه سيل أفكارها، أن يلتقط الثمرة الناضجة قبل أن تسقط في الوحل.
ملأ حديثه أذنها بهواء حار جاف يحرق القلب قبل أن يصل إلى الأذن، كانت تحاول مغالبة شعورها فغلبها عدم الشعور، شعرت بالمرارة، بان الألم على وجهها، انقشعت الرغبة وحل محلها النفور.
وعندما أحس بأثر كلامه الجاف على صفحة وجهها أضاف إلى حديثه قليل من المرح الزائف، ولكنها صارت شاحبة الوجه، شاردة العقل، مستمعة في لامبالاة، مدركة حركة الشفاه فقط، أما أذنها فقد سدها الهواء الجاف الذي خرج من فمه مصاحبا لكلامه.
كان كثيرا ما يحاول تغيير حزنها بإلقاء النكات أو التطرق إلى بعض النوادر في العمل، وما كانت في أي مرة تحتاج هذه النكات، كانت تنتظر منه أن يستوعب ما تشعر به، أن تشعر به

يريد فهم أعماقها، كانت دائما تحتاج إلى الجانب الروحي، وكان دائما يسعي إلى الجانب المادي، ومن البداية خلق هذا بداخلها سياج مظلم من الوحدة، تمارس فيه أحزانها وتبث فيه أشجانها، فلا يمكن تتمازج النفس الروحية مع النفس المادية ولا يمكن أن يتداخلا في نسيج واحد.
كان يحاول جاهدا إخراجها سريعا من حالتها الحزينة، خروج إجباري دون رغبة منه لأن يفهم، هو فقط يريد عودة زوجته الجميلة البشوشة في أنانية شديدة حيث انه يهدف شعوريا أو - لا شعوريا - من ذلك إلى إسعاد نفسه في المقام الأول.

تذهب لتغير ملابسها التي ظنت أنها مثيرة بالقدر الذي يكفي ليراها أجمل أو تستحق تلك النظرات التي يسددها للفتيات في الفيديو كليب، فقد كان يندب حظه بانه لم يتزوج واحدة من بنات الإعلانات التليفزيونية ويقول هذا أمامها ويكرره بطريقة مقززة.
جلس ممدا على الأريكة، يحشو فمه مستمتعا بالنظر إلى تلك الأجسام العارية، النهود العامرة المكتنزة، التي يظهر منها أكثر مما يخفي، مثل الجمال الثائرة التي أوشك عقالها على الانفلات، يتبقى جزء صغير يود الخروج والظهور مثل رفقاءه، ولكن يمنعه قليل من الحياء وكأن العورة في ذلك الجزء الداكن فقط، وتلك المؤخرات الممتلئة المشدودة وهذه الملابس الضيقة التي تحاول إظهارها في أكثر الأشكال إثارة، بل أكثر الأوضاع إثارة، يتراقصن ويتمايلن في ميوعة شديدة، وحركات الشفاه والأصابع تقطر إثارة، بالإضافة إلى ما تحمله

الكلمات من الفاظ وإيحاءات جنسية مثيرة، يكفي هذا لشاب أعزب أن تقيد نار الرغبة بداخله.
ينفث خالد دخانه ممتعضا ناظرا إلى غرفة نومه ويطلق ضحكة خفيفة تقطر سخرية واستنقاصا.

****

من يقوم بإنتاج هذه المشاهد العارية بالضبط كمن يقوم بإنتاج الأفلام الإباحية، ومن يسمح بعرضها على شاشة التلفاز للعامة والأطفال، كمن يسمح بعرض هذه الأفلام، تلك إباحية وهذه إباحية، ولكننا نجيد تمييع وتعويم الألفاظ لتقليل أثارها على الآذن، فأصبحت تلك الكليبات إباحية مباحة.
وبالتدريج يعتاد الإنسان كل شيء، ويصبح ذلك الشيء المشين من فترة، طبيعيا، وما تلبس أن تزداد الجرعة فيثور البعض قليلاً ثم ندخل في مرحلة الاعتياد وهكذا تدريجيا تغسل دماغنا، ويمحي عقلنا، وتفسد أذواقنا.
فما كان مستحيلا بالنسبة لأجدادنا يعد الآن أمرا بسيطا وطبيعيا، وما نراه الآن مستحيلا سيصير بسيطا ومقبولا بالنسبة لأولادنا، هكذا هو قانون الاعتياد بالتدرج، وخاصة أن الجميع يرى ويسكت.

****

ظل هكذا حتى سرت الحرارة في جسده، وذهب إليها يناديه جسده ويلح عليه، فهمت ذلك، ابتسامته فاترة وثناءه مشروط بغرض وإقباله عليها واجب يؤديه تلبية لإلحاح جسده، وعاطفته ليست مشبوبة لأنها عاطفة وليدة اللحظة، عاطفة ساعة يدفعها إليها رشوةً من أجل نيل غرضه لا أكثر، عاطفة قبيحة ليست للقرب أو التعبير عن المشاعر وإنما من أجل غاية وهدف.
وكعادتها استسلمت له بلامبالاة وتركته يعبث بجسدها، وقد إجترفتها مشاعر الحزن واللاكتراث، كانت في أحر الشوق إلى الألفة وإلى التفاهم والحب والمشاعر، هذه المشاعر غير القابلة للإنطفاء في لذة لقاء بهيمى لا يتعدى بضع دقائق، لقاء خالي من أي لذة روحية اللهم قليل من الاحتكاك بأثر التدافع القوي الذي يؤلم أكثر منه يمتع، وكأن العلاقة بينهما علاقة عقد مبرم على الاحتكاك والتدافع في أسفل أجزاء الجسد، فكان بينهما زواج رسمي وطلاق عاطفي.

شعرت بالرعشة تسير بين ثنايا جسدها، رعشة الاشمئزاز، إنما هي ممارسة حب، ولكنها تمارس فقط ومن دون الحب، أحست بالتضاؤل وتقوقعت على نفسها.
والكثير من المشاكل الأسرية تبدأ من العلاقة الزوجية، فهي ليست علاقة تجتمع فيها الأبدان فقط، بل هي التقاء جسد بجسد وروح بروح ونفس بنفس ورغبة برغبة، تلتقي الأجساد وتتداخل بينما ما تشعر بالراحة وتحس بالنشوة هي الروح، وفي اللقاء، كلما كان التناغم بينهما كبير، دل على نجاح الحياة

كاملة بينهما، فالعلاقة الحميمية الجيدة تؤثر على جزء من المخ هو المسئول عن الشعور بالحب، أي أنه ثمة علاقة وثيقة بين جودة الجنس والحب، وبالتالي هناك علاقة قوية بين جودة الجنس والحياة بين الزوجين.
لم تعد تهنأ بأي متعة يسوقها إليها، فلا في حديثه متعة روحية ولا في معاملته راحة نفسية ولا في لقاءه متعة جسدية، فإن لم تستمتع الأنثى روحيا وترتاح نفسيا لن تجد المتعة في أي شيء، ما عادت تدفع جراء لقاءه سوى النكد والتعب وتخرج من لقاءه خروج الباهت الملول من عدم إشباع رغباته أو تحقيق أهدافه، فكان لقاءه كالمح يُلقى على الجرح المفتوح فيجعل الألم أكثر شراسة.
إعتصرها الحزن والكدر، ذاد القلق والتوتر، فلقاء حميمي لا يغمره الحب يجعل الجسم يطلق هرمون - الكورتيزول - وهو المعروف بهرمون التوتر، فيعبث هذا الهرمون في روحها، زاد احتياجها العاطفي، وذلك الاحتياج جزء منه جسدي وأخر نفسي، والعاطفة لا بدَّ أن تشبع من الجانبين، فانهارت مشاعرها وكأنها بناء قديم متصدع، تكفي لمسة واحدة لتسقطه أرضا، أو كما تتساقط الثمار الناضجة من الشجرة فور لمسها.
رجل كهذا لن يقدر على إشباعي أبداً ولن يشعرني بكياني أبداً - هكذا ختمت ليلتها قبل أن تسقط عليها رحمة من الله وتنام.

وقعت روفيدا في الحب وشعرت بأنها شربت كاساته حتى الثمالة، وتزوجت خطيبها، لكنها لم تعطي الوقت لنفسها لكي

تحب، وتري مدي التوافق والاختلاف، لكنها كمعظم بنات حواء في بلادنا تربت على العريس، وانغرس ذلك في عقلها، وعندما طرق الباب أول عريس وقعت في حبه، تحت تأثير ذلك الكلام وتلك الأفكار المخدرة لمشاعرها، شعرت أنها تذوب من لهيب حبه، ومن هنا بدأت تبث هذا الحب على جدران غرفتها، تكتب عليها عبارات الحب وكلمات الأغاني ترسم القلوب ومن داخلها يخرج سهم يحمل الحروف الأولى من اسميهما، تنتشر كلمات الحب ورسمات القلب في كتبها الدراسية وحتى كتب أخواتها، بل وعلى كل ورقة تقع في يديها، وأحاديثهما الهاتفية لا تنقطع مواصلة الليل بالنهار ، وتشعر أن بعض الأغاني الرومانسية إنما كتبت لها، وتغنيها في سعادة يرفرف لها القلب، وتتباهي بأي شيء يخص خطيبها، أو يفعله خطيبها، أو يقوله خطيبها، وتردد كلمة خطيبها في كل دقيقة، حتى بدأ الجميع يتندرون عليها.

ودائما وأبدا لا يوجد ما هو أكثر سذاجة من حب المراهقة، بل إنه ليس بحب وإنما هو احتياج للحب، وضعف أمامه، ورغبة فيه، فنريد إشباع الاحتياج بداخلنا ونظن أننا واقعون في الحب، لذا فهو شعور ساذج - على حلاوته وبراءته التي لا خلاف فيهما- لأنه غير حقيقي وغير متزن، وتغلب عليه السذاجة واللامنطقية، عاطفة مدفوعة بدافع الفضول أكثر مما هي مدفوعة بدافع بالحب والمشاعر الواعية.

ولكن غمرها حلم الحلقة الفضية بين أصابعها، والطرحة البيضاء فوق رأسها، وكانت تريد أن تعيش مشهد الزفاف بما فيه من لهفة وفرحة، لخمة وخجل، ورومانسية كما تزينها الأفلام.

تخيلت الحب والزواج كما تصوره الأفلام والروايات الرومانسية، لقاءات تغمرها الأحضان والغزل، يأتي من عمله ليغمر وجهها بالقبلات وحلو الكلام، غرام لا يجف وهوي ملتاع يستقي ناره من عاطفه لا تمل، وغرام يمنع من النوم، هكذا تخيلت الحب والزواج وهكذا اصطدمت بالواقع.

بدأت تشعر بالندم على تلك الحرية التي كانت منغمسة بداخلها، تضخم إحساسها بالمسئولية حتى بدأ يذهب بفرحتها، واستحالت السعادة شيئا فشيئا إلى أن تحولت إلى حزن، أثقلت المسئوليات كاهلها وتأففت من أعمال البيت، استيقاظ مبكرا وإعداد الطعام، ذهب الحب وانحسر الفضول وقلت الرغبة وبقي التململ وعدم التقبل، فقد كانت تظن أنها ملكت الدنيا وأنها لن تشبع من كلماته وضحكاته ومفاجأته الحلوة، ولياليهم الحارة الملتهبة وارتواءها من رحيقه الذي لن يجف، وعطائه الذي لن يكل، ورغبتها التي لن تمل.
فالزواج ليس سعادة بنظرة الصديقات، ولا هو فستان أبيض وملابس ونزهات، وليس هو بيت تتوج فيه الحاكمة بأمرها والآمرة الناهية، ولا هو ذلك الهيام الرومانسي الذي تزينه الأفلام والأغاني، وإنما هو شراكة لا تتم إلا بالتنازلات، القبول والتكيف، التفاهم، تحمل المسئولية، ومحاولة إرضاء الشريك وسعادته.

****

كانت أمها تحذرها من موافقة زوجها على كل شيء، إن قال يمينا فيمين وإن قال شمالا فشمال، لا بدَّ أن تكون لها شخصية، فالزوجة المطيعة طاعة عمياء ضعيفة الشخصية وليس لها كيانا في بيتها، ولتري أباها فهو خاتما في أصبعها، وزوجها من نوعية الرجال التي لا تأتي إلا بالعين الحمراء، وإن تركت له الحبل أذاقها المر، وإن الرجل مثل الطفل لا بدَّ أن تربيه على مزاجها وزوجك على ما تعوديه، لم تتربى ولم تتعود على الطاعة للزوج، تطلب منه كثيرا ألا يتدخل في كذا وكذا، وتكثر من عبارة أنها حرة.

وكانت تتدخل في كل صغيرة وكبيرة في حياة زوجها وحتى علاقات العمل والصداقات، كانت تثور كما البركان، وتلفظ حمما نارية تحرق الهواء الذي يتنفسونه فيغلي الدم في عروقه وتحيل باقي ساعات يومه إلى جحيم، حينما تعلم أنه كان في سهرة مع أصدقاءه أو سيخرج معهم، كان يخبرها أن هذه هي هوايته الوحيدة، وأنه بها ينفس عن نفسه، وهذه اللقاءات هي ما تجعله أكثر أقبالا على العمل وعلى الشقاء، وما كانت تتفهم ذلك.

لا تريد سوى السيطرة على حياته، حتى أنها تتدخل بينه وبين أخوته وتثيره ضدهم، وتحرضه على عدم مساعدتهم، يُفتح محضر خلف محضر وتنشب المشاجرة خلف الأخرى، وتغير عليه كثيرا من أقاربه، فكانت تحيل حياته في بعض الأحيان إلى جحيم مستعرة من نيران الغيرة.

****

لم يقبل زوجها بكل ذلك، وكان يرد عليها بالعقل والروية فتتمادي أسئلتها العجيبة وتزداد ردوده ضيقا وعنفا، فأصبح أكثر عصبية وسريع الغضب ويصل به الأمر إلى ضربها، وينفجر في كلامه ويسبها، تغضب سريعا وتثور عليه ترد عليه الكلمة بكلمة ويعلو صوتها والفتاة مهما بلغ جمالها فإنها تفقد هذا الجمال عندما يرتفع صوتها، بل أن لفظ الرقة مرتبط بالصوت أكثر من أي صفة أخرى، وكل ذلك كان بوازع من والدتها.

كان يتنازل ويغض الطرف عن تحكماتها في فترة الخطوبة، كان دائما مستعدا للتسامح والتضحية، وكان يتقبل الهزيمة ويقر دائما بأن النصر للأجمل، فتمادت ولم يتحمل ذلك بعد الزواج، كان في فترة الخطوبة ينصاع لها لأنه لا يملكها ويخشى أن تضيع منه، فكان يتلهف إلى إرضائها ومصالحتها، أما بعد الزواج فكيف يتلهف على ما صار ملكه، كانت لها بريق كالنجم الساطع في السماء بعيدا بعيدا، أما وقد سقط هذا النجم في يده، فتخبو الزهوة ويقل الإفتنان، ويصبح النور الذي من شدته كان يعميه عن رؤية بعض الأشياء، خافتا يظهر كل ما كان لا يراه سابقا.

****

كانت أمها تنصحها دائما بما تفعل في حياتها وبما لا تفعل وإن تعارضت نصيحة أمها مع رغبة زوجها تنفذ أوامر الأم، والتي تكون غالبا مخالفة لرأي الزوج، حتى خيل إليه أنه إذا قال يمينا تسير يسارا، وإذا قال يسارا تسير يمينا.
كانت الأم متحمسة كل الحماس لجعل ابنتها المسيطرة على حياة زوجها كأنها تلعب لعبة تريد أن تكسبها، كانت هذه اللعبة دائما ما تلعبها الأم في بيتها وتحيل بسببها البيت إلى جحيم، ندية كبيرة لزوجها والذي بمرور الوقت آثر السلامة وترك القلم لها ترسم به حياتهم كيفما تريد.
وكانت الفتاه ترى عصبية والدتها على والدها وتزمّرها الدائم - حتى وان كانت تعرف الأسباب- فتنغرس هذه العصبية وتلك الردود الجافة وهذه الندية في تعاملاتها، وتتسم بالجرأة في الردود والألفاظ.
ومن البشر من هو كالزيتون، تضغطه فيخرج لك زيتا صافيا طائعا لأمرك كوالدها، ومنهم من تضغط عليه فينفجر في وجهك انفجار القنبلة كزوجها، وكان هو من أشد أنواع القنابل انفجارا.

ومر الوقت وبدأت بطنها في الانتفاخ رويدا رويدا، ومازالت على معاملتها السيئة لزوجها، فرجع إلى أمه والتي نبهته إلى أن الحمل يؤثر كثيرا على نفسية الزوجة خاصة الحمل الأول، وتمادت هي في انشغالها بمواقع التواصل الاجتماعي، حيث تجرأ صديقها التي انشغلت به عن حياتها أكثر وطلب منها ألا تدع زوجها يقترب منها أو يلمسها.

وزادت روفيدا في رعونتها حيث لم يمر العام الأول على زواجها إلا وأصبحت تقضي الوقت في بيت أبيها أكثر مما تقضيه في بيت زوجها، وذلك إثر أحاديثها الجافة مع زوجها والتي كانت تنتهي عادة بمزيج من السباب المتبادل ثم الضرب.
وكان يسر لأمه بما يضايقه منها: مدللة جدا لا تتحمل مسئولية ولا تعترف بخطأ ولا تتحمل عتاب أو نقد أو لوم، عصبيتها متفجرة دائما ولسانها كما المبرد، أسهل ما عندها طلب الطلاق وتقارنه دائما بأزواج أقاربها وكيف أنهم يسعدون زوجاتهم.
ثم يأتي زوجها بعد عدة أيام ليأخذها أو يأتي عوضا عنه أخوه مقدما الاعتذارات وراغبا في عدم هدم البيوت، وأن كل البيوت بها الكثير من المشاكل الناتجة عن لحظات غضب طارئة، وأن أخوه يشتكي أيضا من تطاولها الدائم عليه، ومفردا النصائح وإنها لو عرفت كيف تعامله ستأخذ منه حبّتي عينيه، فأخيه طيب حد السذاجة.

****

وفي لحظة صفاء لا يجودا على نفسهما كثيرا بمثلها، كانا يتحدثان في أمور مالية، ثم بقلة وعي كبيرة وغفلة من عقلها الواعي بدأت زينب تستذكر فعلة ما لزوجها ثروت، وللأسف

دائما ما يتذكر الزوجان التاريخ السيء بينهما ولا يفكران في تلك اللحظات الحلوة التي كانت بينهما، فيجذبان إليهما الأفعال والأقوال السيئة، وبالتالي تسوء علاقتهما أكثر فأكثر، فلكي نعيش حياة زوجية سعيدة لابد أن تكون لنا ذاكرة ضعيفة، أو نحاول نحن إضعافها بالتجاهل والتغاضي، وطفقا يتحدثان معا دون أن يسمع أحدهما الأخر، وأشتد الكلام واحتدم بينهما الحوار وتحول إلى سباب هذا يستنكر وذلك يستحقر.

كانت تقول إن الرجل الذي يضرب زوجته رجولته ناقصة، وأن الرجل الذي يتعامل بعنف مع زوجته بين الحين والأخر إنما هو مفترسا أتيحت له سلطة فيستغلها بطريقة تناسبه وتلائم طباعه، ولو كان أكمل منها عقلا كما يدعى لما مد يده عليها أو أطلق لسانه فيها كلما اختلفا في أمر ما.
فكان يرد عليها بأنها لم تحترمه يوما ولم تعطِه حق قوامته عليها، ندية مفرطة، وكلمات طائشة تخرجه عن شعوره، ونظرات كارهة حارقة تصوب إليه بين الفينة والأخرى.
زفر الرجل تنهيدة كبيرة ثم أستطرد:
كل شيء أفعله خطأ، وكل قول أقوله ليس صواب، كل شيء أحاسب عليه وأُناطح فيه، كل شيء منى لا يروقك، فماذا تجديني فاعلا؟
رمقته بعين الآسى، وكأنها لم تفعل ذلك، ثم أخفضت عينيها لتهرب من عينيه وتتذكر كل ما كان يتحدث فيه.
كانت حقا ترمى له النظرات الكارهة باستمرار، كلما فعل شيء أو صدرت منه حركه، وكلما أصدر صوتا أثناء الطعام، وكلما ألقى مزحة لم تروقها أو كلمة لم تعجبها أو لم تفهم مضمونها،

وكانت تستهجن ذوقه في الملابس، وتراه دائما أبعد ما يكون عن الأناقة، كانت تكره حتى أنفاسه التي تخرج منه. كانت تقول إنها ما رأت معه يوما سعيدا قط.
وكان يردد أن النساء مثل القطط تأكل وتنكر، وأن للنساء سلتان واحدة أمامها لتضع فيها اللحظات التعيسة والمشاكل والأمور السلبية كلها فتكون أمامها باستمرار، فلا تتذكر إلا ذلك لأنها تراها وتفكر فيها باستمرار، أما السلة الأخرى مخبوءة خلف ظهرها، تضع فيها اللحظات السعيدة والأمور الإيجابية المفرحة، والتي عادة لا تراها فتنساها ولذلك تقول إنها لم تكن سعيدة في حياتها قط.
وهكذا تسير معظم الأيام بينهما قطا وفأر.

****

تميل زينب ثانية إلى أكرم، الحبيب الأول الذي رفضته والدتها، أصبح أكرم الآن ميسور الحال موفور الدخل، أنجبت زوجته طفلها الثالث في خلال خمس سنوات من الزواج، وكلما كثر الولد كثر الرزق، إبتاع سيارة أجرة، كان في السابق يعمل على سيارة سائق آخر كلما سنحت الفرصة، أما الآن وقد ورث قطعة أرض عن أمه، فقد تغيرت حالته، باع جزءًا منها ليبني بيتا فخما يعد درة الحي المجاور، وأشترى هذه السيارة، التي نجحت في دفع حياتهم نحو الاستقرار المادي.

أوصلها في طريقه عندما كان عائدا من بلدتها وهي خارجة منها، تجاذبا أطراف الحديث، لأول مرة منذ سنوات طويلة تجلس وتتحاور معه، وتكلما في أمور أطفالهما وحياتهما العائلية، ثم طفقا يتحدثان وبحذر شديد عن حياتهما الشخصية الخاصة، أرادت أن تُظهر تأسفها مما فعلته أمها به وبها ولكنها آثرت الصمت.

كانت ضعيفة حزينة كأي سيدة لم تجد في بيتها ما تتمناه لم تجد السكينة والمودة، سواء منها أو من زوجها أو من كليهما بائت علاقتهما، بالفشل وانقطعت المياه بينهم حتى جفت الأرض وأضحت في أمس الحاجة لقطرة ماء مهما كانت النتيجة، فالمرأة أن لم تجد السعادة في بيتها اشتاقت لها حتى لو من الخارج، بل فتشت عنها في الخارج وإذا لم تحصل على السكينة في بيتها صارت تتمناها في عش آخر.

وهكذا دفع هذا اللقاء الحنين بينهما وتركه يعبث في قلبها.

وكانا يتلاقيان بين الفينة والأخرى على الواتس أب، يتحدثان بحذر عن حياتهما وفي أوقات تجرفهما الموجة إلى حبهما البائت وحياتهما الرتيبة، وهكذا كثرت الحوارات بينهما، وتواصلا تواصلا شبه يومي.

كان خالد يكثر من العتاب على حزنها الظاهر وكآبتها الدائمة، وكان يقول لها ماذا تحتاج لكي تكون سعيدة في حياتها، فلديها كل سبل الراحة من بيت أنيق وأموال كثيرة وكل ما تطلبه يكفي

أن تشاور عليه لكي يأتيها وهي معززةً مكرمة، كان يظن أن المال هو السبب الرئيسي في السعادة والتعاسة، وكانت تنظر إليه متبرمةً من تفكيره بأن المال هو الحل لكل المشكلات، لا يوجد لها حق في أن تكون حزينة، فكانت تتضايق أكثر وتشعر بالحزن لأنه لم يفهمها ولن يستطيع أن يصل إلى روحها، فكان كل فعل يفعله وكل قول يقوله يضيف نارا جديدة إلى نيران الغضب المستعرة في قرارة نفسها.

وأصبحت تعاني مؤخرا من مشاكل كثيرة في الهضم وآلام في المعدة وضيق في التنفس، أخبرها الطبيب أنها عضويا سليمة وليس بها ما يقلق وأن مشاكلها ربما تكون نفسية أكثر منها جسدية، فمن المؤكد أن كل آلامها العضوية هذه نتيجة الألم النفسي، فهمت سلا مراده، ولكنها لم تستوعب الفكرة كاملة هي صحيح تعاني من مشاكل نفسية وحزن شديد، ولكن ما دخل هذا بسوء الهضم؟ - سألته-

أجاب: يوجد في علم النفس نوع من الأمراض يسمى الأمراض السيكوسوماتية، يعبر الجسم السليم عن الروح المنكسرة، فيظهر ألما أو تعبا زائفا، لأنه في الحقيقة ألما نفسيا وليس عضويا، والجسم لا يشفى تماما ولا يشعر بالرحة إلا حينما يكون الفرد مرتاح النفس وينعم بالهدوء والسكينة والاطمئنان، وذلك نتيجة لخلل في هرمونات أو كيمياء الجسد نتيجة للتعرض إلى ضغوطاتٍ نفسية شديدة، بالضبط كما يصاب شخصا بأزمة قلبية نتيجة لتعرضه صدمة نفسية بخسارة شيء ما.

ونصحها الطبيب بأن تبتعد عما يضايقها، وأن تغير نمط حياتها وتخرج للحياة، وتفعل ما يدر عليها السعادة ويجلب لها الاطمئنان والهدوء النفسي.

كان رمزي يهاتفها تارة وتارة أخرى يكتب إليها، يفيض ويسترسل في رغبته في اللقاء يريد التلاقي وجها لوجه، يريد رؤية الملامح، حين تبتسم حين تحزن وحين تغضب، ويسمع مباشرة ذلك الصوت العذب الرقيق، وكان يقول إن صوتها هامسا يوحي بصغر حجمها، وحنونا يشير لكبر فؤادها، وناعما يدل على رهافة حسها، وكأنه صوت ملائكي هابط من السماء، وكأن الهواء الخارج من رئتيها يتوخى الحذر قبل أن يصطدم بالحبال الصوتية، فينتج عنه ذلك الصوت الذي يثير الأشجان ويلهب العاشق الولهان، وتخدرت بكلامه وكأنها أكلت طنا من الأفيون.

فقد بنت الأحلام وعاشت الأوهام وطوت الأيام بخيالها وجموح رغباتها حتى استغرقت في خيالها ولبت الرغبات المدفونة في لا وعيها حتى أنها بدأت تعيش الخيال عيشة الواقع، وترسم العش المسحور الذي تود أن تعيش معه فيه.

تزينت كما لم تتزين من قبل، وسارت إليه في خطوات خفيفة مشرقة النفس مستريحة الأعصاب ولائمتها الظروف، فذهبت أبكر من ميعادها وجلست في هدوء ترتقب حضوره.

وأتي مسرورا مرحبا بها في اشتياق كبير، احتضنتها لهفته وتشوقه الذي ظهر عليه وضغط على يديها بحرارة، وغمرها انضباط مواعيده وعدم تنكديها في انتظارٍ يُفقد لهفة اللقاء كما يفعل خالد، فالشخص الذي يدرك قيمة الوقت والالتزام في المواعدة، يدرك قيمة لهيب الشوق ولهفة المشاعر.

يخبرها وهو يطيل إليها النظر أن جمالها يسحر، فقد كانت أنيقة فاتنة ساحرة وكأن جمال افروديت قد تمثل فيها، وكان يتساءل

أكل هذا الجمال معي الآن؟، تارة يمدح لون وتناسق ملابسها الذي يدل على ذوق سليم، وتارة أخرى يتغنى بقصة الكاريه الفرنسي الذي يلمع فيه شعرها الناعم والتي تلائم وجهها البيضاوي وتعكس جمال منقطع النظير.
وطفق يقول إن المرأة لا تغير في شكلها أو قصة شعرها عبثا، فيضطرم وجهها خجلا، وتتسارع دقات قلبها كأنه لم يدق من قبل أو كأنه كان يوفر كل هذه الضربات لمثل هذا الوقت، وكان وجهها يتضرج كمراهقة أرهقها الخجل فقد عبث بها معسول الكلام، كانت تشيح بعيدا بوجهها الذي أشرق وتورد من فرط السعادة، محاولة عبثا إخفاء سعادتها، فراح يواصل كلامه طالبا منها ألا تشيح بنظرها بعيد عنه، وألا تبعد عنه عينيها فإن السحر الذى بداخلهما يجعله يرى الحياة كاملة بصفاء وسعادة كالتي في عينيها، وراح يراقب وجهها ليرى أثر تلكم الكلمات عليها، استثمر ذلك وأخذ يكيل إليها كلمات الإعجاب والإجلال، وكأنهما عاشقان.

أشعرها كلامه بالرضا والابتهاج، ترتسم على شفتيها ابتسامة يملأها الحزن وتخبره أن ذلك لا يصلح وأنهما مجرد صديقين، وفي داخلها تود ألا يسكت، فالنساء كثيرا ما تقول الكلام وتقصد به عكسه، كالأم التي تدعي على طفلها وقلبها يطلب من الله ألا ينفذ ذلك الدعاء ويبعد كل الشرور بعيدا عن وليدها، لا ليس انفصاما في شخصيتها، ولكن ذلك من تكوينها ومن تناحر كبريائها مع عاطفتها.

وجدت في لقاءه الألفة المطلوبة والمتعة المنشودة والتفاهم المرغوب والوفاق المحمود، سرت اللذة تدغدغ جسدها، شعرت بأقصى درجات السعادة، وكأن هرمون الدوبامين انفجر في جسدها فأغرقها في بحر من السعادة والمتعة.
يقول وهو قابض يديه ضاربا بها على المنضدة حتى دوي الصوت واهتزت زجاجة المياه وتطايرت بعض قطرات العصير، آه لو لم تكوني متزوجة، تنظر إليه متلهفة لِما يقول، يهدأ ثم يقول في تؤدة :ولكنك في الحقيقة غير متزوجة، فالزوجة التي لا يقدرها زوجها لا تكون متزوجة، تطرق محاولة استيعاب كلماته، وفي داخلها تطوق إلى تمزيق علاقتها تلك، التي هي سبيل كل المنغصات في حياتها، كان يحدثها أننا حتما نجد الشخص الذي يغمرنا بالسعادة مهما ظننا عكس ذلك، لكن هناك من يتخطى العواقب وهناك من يرفض هذه السعادة، وليس العيب أن نخطأ أو نختار خطأ، ولكن العيب هو أن نستمر في هذا الخطأ، وكانت تستمع في صمت وتطلب منه أن يغير الموضوع.

انقضت ثلاث ساعات وكأنها ثلاث دقائق، فالوقت يمضي سريعا جدا على من يستمتع به، بطيئا جدا على من يعاني فيه.
قررا أن يتمشيا سويا، فالسير مع المحبوب له لذة خاصة لا يشعر به إلا من سار مع حبيب يملك قلبه، يكفي أن ذلك يحفز الجسم لكي يفرز هرمون" السيروتونين "- المعروف بهرمون السعادة أو هرمون العناق- والذي يشعرك بالراحة النفسية والرضا ويساعد في تدفق مشاعر الحب والعاطفة وزيادة الرغبة.

فلم يشكوا طول الطريق بل لم يشعرا بالطريق، هل هو قصير أم طويل، وهل هو هادئ أم صاخب، إنما كان الهدوء والصخب هو ما يعبث في قلبيهما.

****

تعود من اللقاء شبعانة راضية قانعة شاكرة، وحين تشبع النفس وترضى ينتقل الرضا تلقائيا إلى الوجه والجسد، وتظهر السعادة جلية على ملامحها، لم تكن الوردة التي أعطاها لها أول وردة في حياتها، فالجميع يعلم أنها تحب الورد، وخاصة تلك الوردة التي تحمل اللون الأبيض لأنها تعتقد أن هذا لون البداية الجديدة وبعد كل وردة بيضاء تمنح، حياة جديدة تنبثق، حياة مطهرة معبّقة بصدق النوايا، فقد حصلت على الكثير من قبل، فتارة من خالد، وآخريات من أحمد، ولكن الوردة الآن لها طعم أخر، فقد أتت على جوع.

أتت وهي في أمس الاحتياج إليها، فشبعت العين من لونها، والأنف من أريجها، واليد من ملمسها، والاهم شبعت النفس من معناها.

فعادت ونفسها هادئة مطمئنة، وأعصابها ساكنة مستريحة وكأنها في فترة نقاهة بعد وعكة شديدة، فودّت لو تطول ذراعاها وتعانق الكون بأكمله، فالحب يردم كل الحفر ويعالج كل الجراح ويشفي كل الاضطرابات الموجودة في القلب، والحب شعور يستدعي السعادة، ويجعلك تشعر بجمال الأشياء من حولك، تسعد بجمال السماء وهى صافية، تفرح بسماع سيمفونيات الطيور عند الغروب، ويجعلك تفرح حتى من أصغر الأشياء التي ما كنت تلاحظ جمالها سابقا ولكنها صبغة الحب التي تصبغ الحياة جمالا لافتا، فكانت تسير وهي لا تدري بالطريق ولا تلق له بالا، تمشي خفيفة طائرة، وتسير بخطوات سريعة وكأنها تقفز من على الأرض قفزا، وكانت تتلجلج في سيرها، تسير في خط ثم تغيره ثم تعود ثم تنأى بجسمها قبل الاصطدام بأحد المارة، كأنها لا تدري في أي اتجاه تسير ولا

أي طريق تريد، حتى عادت إليها نفسها وهدأت سرعتها، واتزنت خطواتها.

****

صار يكتب لها الآن ويفيض بعبارات الشوق والحب، كانت حينما تضحك يهمس لها قائلا :أن ضحكتها هي جواز سفره إلى

العالم الجميل، وأنها تضفي عليه سعادة ونشوة لم يحس بها من قبل، وحين يكون متضايق من شيء يحدثها ويخبرها أنها صارت له بمثابة النجم الذي يهتدي به والملجأ الذي يختبئ فيه.

إعتاد عليها وعلى أحاديثها، تعلق بها حقا، أحبها، صارا يتبادلان كلام الشوق والوجد كلمة بكلمة وكلا منهما يعبر عن خلجات قلبه دون حرج، وتخرج زفرات الحب وتنهداته دون قيود أو حواجز، أصبحا يتناولان الحب بلهفة طفل لم يتناول طعامه المفضل الذي حرم منه، وكان الصراع يدور بداخلها أي الألمين تختار؟ أي الخسارتين أهون؟

هجمت عليها غربان الغواية، وبعدت عنها طيور الهداية وتموجت بها العواطف بين صعود وهبوط، تأجج وانحسار، هيجان وانكماش، مد وجزر، فزال النفور وحل محله التعود، والتعود يجعلك تتقبل أي شيء، أخطأها الحظ في الزواج، وضاقت بفراغ قلبها، فحنت عليه.

توالت اللقاءات، وفي كل لقاء يغمرها بالهدايا يتفحص الزجاجات الأنيقة والروائح الرقيقة ويتساءل في غمرة الحديث عن أذواقها ويختار ما يخلب لبّها، وكانت سعيدة كسعادة طفل باللعبة الجديدة، ذاد الحب وتعمق، خف الشعور بالذنب وقل التوتر ونزلت كل هرمونات الخوف والتوتر، وارتفعت كل هرمونات السعادة والمتعة، فتلاقت الأيدي وتشابكت في حرارة، فتلاقت الأحلام مع الواقع، تدفق الدم في العروق، والرغبة تلح في شوق، يتبادلان كلمات الحب بصوت لاهث،

ويخفق القلب عند الوداع وبالتالي ظهرت القبلات والأحضان قبل الوداع، ما عادت تؤلمها الخيانة، كأنها تعوض نقص الرومانسية في زوجها، تلهث من فرط الحب، ذلك الحب الذي ينزع عنها شعورها بالإثم، لم يعد بإمكانها التراجع أوالتفريط في كل هذه المشاعر، لذا قاتلت الشعور الآثم، بالمقارنة تارة، وتارة اخرج حاربته في نفسها بالاحتياج.

أمطرها بكلمات كانت تذيب صلابتها المزعومة، ويسترسل معها ويخبرها أنه بالقرب منها يغمره نورها كالقمر يضئ الأرض بنوره، فإذا ابتعد عنها أظلم وشحب، أو هي كشمس الشتاء تشع دفئا يعيد الحيوية والنشاط إلى سكان الأرض، فإذا هو ابتعد عنها فكأنه يتجمد في ثلاجة الوحدة والانتظار، وكأن وجوده مرتبط تماما بوجودها بجواره، وكأنه القمر لا يكتمل إلا في أيامٍ محددة، هو كذلك لا يكتمل إلا في أيام محددة أيام أن يكون بالقرب منها، وحينما تبتعد عنه يكون كورق الشجر في خريف قاتم يذبل وكأنه انتزع من فرعه المحبوب وغصنه الميادالذي يمده بالطاقة والسعادة، وحين يمضي أيامه وتتساقط أوقاته بعيدا عنها يثور الاكتئاب في صدره وتمتد يده لتصل إلى عنقه فيخنقه خنقا، وتستمر هذه الصراعات إلى أن يلتقي بها حيث يقضى نورها بسيفه البتار على ظلمات الاكتئاب بداخله، فيرقص صدره طربا بزوال الغمة، وتهتز أنفاسه فرحا بانفراج أسرِها، ويخفق قلبه بقوة ليبعث الحركة في دماءه الراكدة المتجمدة.
وكانت هذه الكلمات تهب عليها من حينٍ لآخر كنسمات عليلة منعشة تفيض رطوبة في نهار صيف حار، فذاد القرب

وأسرفت فيه، وذاد الهيام وصارا يتناولان الحب بلهفة العشاق، وأوغلت العلاقة بينهما إلى الحد الذي لا يقدرا منه على العودة، أو هكذا تخيلا.

****

شاهدها أحد الجيران والذي يعرف زوجها وهي تجلس بجوار رمزي وهما يتبادلان الضحك، رأته، تلاقت أعينهما، اضطربت يديها، أربد وجهها وتغير، زادت ضربات قلبها

واضطربت أنفاسها، ارتعشت رموشها فوق عينيها التي ظهر الفزع جليا فيهما، ومرت لحظات قليلة كأنها سنين عديدة وهي تنتظر منه رد فعل أو أي إشارة، نظر رمزي إليه وظنه للوهلة الأولى زوجها وانتظر في ترقب، وعندما أشاح بوجهه عنهما وخرج الرجل، علم رمزي أنه أحد المعارف لا أكثر، فإلتقط أنفاسه التي هربت منه، وقامت هي وطلبت من رمزي أن يغادرا حالا.

وفى الطريق انهارت باكية وهي تحدث رمزي عن معرفة هذا الرجل بزوجها، حاول تهدئتها كثيرا ولكنه لم ينجح في أي مرة، أخبرها أن تكون أكثر ثقةٍ وهدوءا حتى لا تثير الريبة وستسير الأمور على ما يرام.
فاندفعت قائلة: إن الشائعات المشينة تنتشر بسرعة لأن الناس تحاول إخفاء عيوبهم بإظهار عيوب الآخرين، أو لعلهم يرغبون بالإحساس بأنهم أفضل وأنقى من الآخرين، والحقيقة أن مساوىء الناس أكثر من أن تحصى وأكبر من أن تعد وأننا جميعا أسوء مما نتخيل أو مما نعتقده بشأن أنفسنا.

مرت الأيام عليها ثقيلة خانقة، وكانت في حيرة من أمرها مع اضطراب وقلق كبير، كانت ترتعش كلما تخيلت أن الرجل أخبر زوجها، وفضح سرها أمامه، وكانت تتخيل الفضيحة تسير بين الناس فترتجف وتذوب في مقعدها، وتعض شفتيها من الخوف في كل موقف تتخيل أن كل شيء سيظهر به وسيخبرها زوجها بما رأى الجار.

كانت تتناول مع خالد الطعام، وتحدقه كثيرا كانت تنتظر منه أن يخبرها بما رأى صديقه الجار، ولم يظهر عليه أي تغير، ولم يبد عليه أنه يعلم شيء، لعل الرجل لم يخبره أو لعله يخطط لشيء ما، وهكذا ظلت تحترق في صمت وانتظار، وعاشت في جوٍ مشحون بالترقب.

ومرت الأيام وشعور الخوف ينحسر وبدأ القلق ينعدم، عاد إلى إلحاحه في طلب اللقاء ولم يكن بد من اللقاء في شقة يملكها رمزي، وقد بدأ رفضها يضعف ويفقد أسبابه، فأعطاها العنوان وذهبت إليه في حذر شديد.
كانت الشقة نظيفة مؤثثة بأثاث جميل، منسقة بذوق رائع، أحست وكأنما هي التي قامت بتشكيلها، وغمرتها رائحة الزهر التي تفوح منها.
أخبرته عن قلقها بشأن الشائعات فحاول تهدئتها قائلا إن الأمور قد مرت بسلام، ونظر لها نظرة متألقة مبديا إعجابه الشديد بها، وداعب شعرها الناعم المسترسل وكلمات الغزل تنساب من بين شفتيه، وهمس في أذنيها بكلام الحب والافتنان حتى أنبعث الدفيء في جسدها، والتهبت شحمتي أذنيها ونظرت إليه نظرة خاطفة فإذا بلذة تسري في جسدها وتجتاح مشاعرها متزامنة مع حركات يده على صفحة وجهها، كانت على وشك أن تقول له أنها تخشى من كلام الناس وأعين الرقباء، فإن لم يروها الآن لا شك أنهم لن يلبثوا أن يروها لاحقا، وإن الأيام لا شك ستتولى إماطة اللثام عن علاقتهما، فطبع قبلة طويلة على ثغرها، قبلة لم تتذوق مثلها من قبل فذابت فيها، وماتت الحروف وانسحقت الكلمات بين الشفاه، ضغط على شفتيها وارتشفها ارتشافا،

أغمضا أعينهما وغابا في سحابة من القبل وقد انعزلت بقبلته عن الوجود.
كانت القبلة سابقا تسليم قطعة لحم بلا تفاعل ودون مشاعر، عيون مغمضة ليست بفعل الخيال والمتعة كما الآن، ولكنها بفعل النفور أو عدم الرغبة.
ضمها إليه بقوة وألصق جسده بجسدها وضغط على خصرها بشدة، أحست بلهيب شوقه وحرارة أنفاسه، واحتواها كأنها طفلة بين يديه، حاولت أن تقاوم ولكن رغبته خمدت مقاومتها ووأدتها في مهدها، بدأت مخاوفها تتبخر كسحابة رطبة تحت دفئ الحب، وتفتحت مسام جسدها الذي أصبح طافحا بالشهوة والانفعال.

نظرت إليه وصدرها يعلو ويهبط وكأنها تلهث وعينيها تفيض بالإثارة والانفعال، تشبثت به بيد مرتعشة مضطربة وابتسامة غائمة ترتسم على شفتيها، فأبدت انصياعا كاملا له.
بدا وكأنه درس خريطة جسدها بالكامل قبل أن يشد الرحال إليه وعلم بمناطق المتعة التي لا تنضب في جسدها، فنزع عنها ملابسها بلذة كهربائية شديدة تنتقل من وإلى أصابعه فتسير في جسديهما لذة جعلت من قواهما تنهار سريعا، ونثر باقة من رسل الحب على كافة جسدها من فروة الرأس حتى أخمص القدم، دغدغ جسدها من المتعة وقد ترك لعابة وأثر قبلاته بصمة حمراء على جميع أعضاء جسدها البيضاء، كان توزيعه للقبل توزيع خبير يستمتع بعمله، وزرع الكثير منها على شفتيها حتى انتفخت وغمق لونها وسرى تخديرا كاملا ولذيذا في أنحاء جسدها، وكانا يتوقفا وينظرا في عينيهما بإنفعال ويلتقطان

أنفاسهما المتسارعة فتنفجر اللذة ويسير التخدير مصحوبا بدغدغة القبل الكهربائية اللذيذة وكأنهما في رحلة إلى عالم المتعة.
ومضى الوقت ممتعا، ساده دفء وحرارة، شوق ولهفة، انفعال وشهوة، بدت كأنها تموت تلذذا، وصعدت إلى السماء في تأوهات تدغدغ الجسد، لم تجرب من قبل لقاءً بمثل تلك الحميمية، ولم تتصور في خيالاتها الأنثوية أن تصل إلى هذه الدرجة من النشوة والمتعة، استمتاع بكل همسة تغزو الأذن، وكل لمسة تطبع على الجسد، فكان جسدها اللدن يتقوس ويرتعش تحت ثقل جسده، ويتلوى كثعبان على رمال صحراء حارقة، انتثرت خصلات من شعرها الناعم على وجهها البراق المتألق، ، لم تكن تعرف من قبل انصهار الروح بالجسد وقد تفتحت بين يديه تفتح الوردة تطلب الارتواء، سقته الحب حتى أسكرته، ورواها من ندي العشق حتى أشبعها، وظلا متعانقين بعد ذلك برهه من الزمن وهما في خدر لذيذ.

لم تكن هذه هي العملية التي تقوم بها من قبل، كانت تقوم بالجنس، الفعل الميكانيكي، أما الآن تذوب في علاقة جنسية تنصهر فيها الروح والجسد، والعلاقة الجنسية التي يغمرها الحب تختلف تماما عن القيام بالجنس.

وفى إحدى المرات التي غضبت فيها روفيدا غضبة طويلة نسبية عما اعتادت، أتت مكالمة هاتفية من شخص غريب لزوجها يخبره فيها أن زوجته - تلعب بذيلها من وراءه - وإنها

تعرف شخصا آخر ويتقابلان سريا وتربطهما ببعض علاقة من مدة طويلة تصل إلى ما قبل زواجه منها، وإنها والله أعلم تغضب كثيرا تاركة بيت زوجها ليخلوا لها الجو مع حبيبها.
وكانت أمه بجواره، ولاحظت تأثير هذه المكالمة عليه فسألته عما حدث، ووجد نفسه يستشيرها فيما سمع، ولكن الأم لم تبدى أي رأى بل وبخته قائلةً: كيف تصلى الفرض بفرضه ثم تظن هكذا في بنات الناس دون دليل دامغ.
ثم أردفت قائلة: من الممكن أن هذا الشخص يريد الإيقاع بينكما، وربما شخص أنت على خلاف معه أو ربما شخص كان يعرفها قديما وتغلى النار بداخله لأنها فضلتك عليه، وهذا هو السبب الأقرب، فالناس يا بني أصبحت لا تطاق.

ومرت أيام هادئة بعد عودتها إلا أن أمرا ما تكشّف لسامى لم يكن يلقى له بالا من قبل، وهو أن روفيدا زوجته تتعمد أن تنتصر عليه في الآراء والأفعال، لم يكن يلحظ أنها تتعمد ذلك، أما الآن وبتوالي المواقف بات الأمر جليا، وأحس أنها تفرض شخصيتها عليه في ندية شديدة ونفس متسلطة، وتضيق عليه الخناق، فقد كانت متنمرة تعارض أراءه وأفكاره ولا ترغب إلا بالانتصار عليه حتى لو تبين خطؤها، كانت تعانده وتعصى كلامه أمام الأقارب، فكانت النار تغلى بداخله وتعتمل الثورة في روحه وكان ينصحها كثيرا بتعديل هذا الأسلوب فلا تستجيب، بل أنها تسمعه وهى مشغولة سواء بتقطيع شيء أو متابعة التلفاز أو حتى باللعب في الهاتف المحمول.

وفى أوقات كثيرة كان يحتاج إلى الصمت فتصر هي على الحديث، وكان يطلب منها أن تفعل كيت وكيت فلا تفعله بالطريقة التي يريدها، بل بطريقة مختلفة تراها أفضل، وكان كل ذلك يخلق جوا متوترا، فكان التشاحن والعراك يزداد كل يوما عن سابقه.

وفى أوقات آخرى لم تميز روفيدا بين ما يجب أن تخبره لوالدتها وما لا يجب، كانت عدم قدرة زوجها المالية بسبب ديونه الكثيرة المتبقية عليه من تكاليف الزواج يجعلها تطلب من والدتها بعض النقود والأشياء، وذلك أعطى مجالا للأم أن تدخل أكثر في حياتهما الزوجية، بالإضافة إلى أن أمها كانت تحب أن تظل ذات الأهمية الأولى في حياة ابنتها، لذا كانت تهرع إليها فور حدوث أي مشكلها بينها وبين زوجها حتى لو كانت صغيرة، حيث كان التواصل بينهما ضعيف، والذي أدى بدوره إلى ضياع خصوصية الحياة الزوجية، مما نتج عنه ضعف الحميمية بين الزوجين، وزيادة الجفاء ونشوب المشاكل على أشياء صغيرة تافهة، وتضّخمها خاصة حينما يأتي التحريض من طرف ثالث.

****

حذرها زوجها كثيرا من عدم إذاعة أسرار حياتهما الزوجية، ولكنها ما كانت تسمع له بل تلبي كل ما تأمرها به والدتها، وكانت تُعلِمها بكل تفصيلة صغيرة كانت أو كبيرة في حياتهما حتى

الخاصة منها، فكانت الأم حينما تلتقي بالزوج تعاتبه وتحاسبه على أمور في حياتهما وكان يقف مصدوما من إفشاء أسرارهما. وزاد بقاؤه خارج البيت وذاد من تجاهله لها وزاد بخله العاطفي وتجاهلها فراشيا، وقد أصبحت تداهمه الكآبة فور دخوله المنزل، أعتاد تلقائيا أن يكون البيت قطعة من الجحيم، صمت فضيق، تجاهل فنفور، حديث فشجار، وانغمس كليا في الاستفزاز، وظلت مشاعر الغضب والسخط تشق طريقها في صدره، وتتراكم إلى أن أصبح البركان على وشك أن يثور، وهذا التأثير النفسي ألقى بظلاله على تركيزه في العمل فصارت أخطاءه أكثر من المعتاد ووقع عليه جزاءات متتالية حتى وصل إلى التهديد بالطرد من قبل مديره إذا لم يستفق لعمله.

****

حدثت خلافات مع أهل زوجته وتوترت العلاقة بينهما وباتت النفوس غير صافية، وفي إحدى المرات وقد تنامى الغضب وتصاعد النقاش واحتدم الجدال بينهما حتى أتت لحظة انفجر فيها سامي في وجه الأم، فطردها من بيته وحلف طلاقا بألا تدخل هذا البيت ثانية، بل وطرد زوجته معها وظلت ثلاثة أشهر حتى تدخل الوسطاء ونجحوا في لم الشمل سويا ولكن بشرط، كان شرطه

الوحيد ألا تدخل أمها ذلك البيت هذه الأيام، كان يقول إنه يشعر وكأنه متزوج من أم زوجته.
وحز ذلك في نفسية الأم، فراحت تحرضها على زوجها أكثر وتطلب منها أن تطلب منه هدايا ذهبية ونقود كثيرة لتأمن مستقبلها، وفي وقت ما رفض هذا الابتزاز وغضب وغضبت فتراشقا، وتركت البيت وأخذت كامل ذهبها، بعدما سمعت مشورة الأم في ذلك، ولو تعاملت معه بذكاء وأعطته بعض ما عندها من حب وحنان، لأخذت منه كل ما عنده وكل ما يملك عاطفيا قبل ماديا.

******

وفى الغضبة الأخيرة التي دامت ثلاثة أشهر حين بلغ الحنق والضيق منتهاه ذادت المكالمات والرسائل التي تخبره بما تفعله زوجته، حتى جاءته رسالة تقول بأن زوجته تستقبل أحدا ما في بيت أبيها دون أن يعلم أحدا بذلك، يأتي ويصعد لها دون أن يراه أحد ويمكث الليل في حضنها حتى ينتهي منها وينزل دون أن يراه أحد.

هاتف صاحب الرسالة وسأله عن غرضه ولماذا يفعل ذلك؟ وهل هناك بينهما أية معرفة؟، فقال له أنه فاعل خير أرسله الله ليجعله يستفيق من هذه الغيبوبة التي يعيش في داخلها.
لم يتحمل سامي هذا الكلام الذي أقض مضجعه وأغرقه في غابة من الشكوك والوساوس، حتى أنه أراد أن يذهب بنفسه يراقب بيت أبيها ليلا.

ذهب ووقف على ناصية الشارع من الجهة التي يستطيع من خلالها رؤية كل من يدخل أو يخرج بيت والد زوجته، سهر الليل هناك وفي منتصفه ومع زخات المطر الأولى قرر أن يعود أدراجه وأن يلقى بهذه الأفكار الحمقاء بعيدا.

****

وفي كل الظروف قد أتفق الجميع على عدم إكمال الطريق وأن المشروع في طريقه إلى الفشل عاجلا أو آجلا، كانت تقول إنه تغير ولم يعد كما عرفته، وكان يقول إنها تافهة سطحية مستهترة مبالغة جدا في أمور الزينة وكأنها تحاول أن تخفى خلفها جوهرها الضحل الفارغ، وإنه يحسد أصدقاءه على سعادتهم في حياتهم الزوجية بالمقارنة به.
طلبت الطلاق وأقر هو باستحالة الحياة بينهما، لكنه رفض أن يطلقها قبل أن ترد إليه الذهب والمصوغات التي أشتراها مؤخرا، فقد شعر بانها كانت تبتزه وتطلب منه الأموال استعدادا للطلاق.

أسرفت زينب في حواراتها مع أكرم، وكل منهما تجرأ أكثر في كلامه، لم تعد الحوارات سوى عن الراحة التي يشعر بها كليهما وهما يتحدثان مع بعضهما البعض، وإنهما ما كانا يجب أن يفترقا، كان يخبرها بأن حياته فارغة مملة رتيبة، يحتاج إلى حب حقيقي، حب يدغدغ كيانه ويجعله يهتزا طربا كلما سمع صوت المحبوب، ولم تكن أشد منه حرصا، أخبرته هي الأخرى بأنها تعاني بل وقد أشرفت على الانتحار من جراء معاملة زوجها لها،

وأنها ما عادت قادرة على الاحتمال، وتنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي تهرب فيه من هذا البيت وهذه الحياة.
بدأت أحاديثهم تأخذ جانب أخر وبدأت كلمات الحب تظهر على حذر، ثم كلمات الرغبة تتواجد في استحياء، وأصبحت تعلم بكل تحركاته إلى بلدتها، وكانت تخرج لتراه أو ليوصلها إلى مكانٍ ما.
هذا الحب الكامن في زوايا قلبها كان قد تجمد في ثلاجة الفراق واليأس، وما إن مسته حرارة الاتصال والقرب حتى انبعث من جديد رقراقا، وما إن رأته وسمعت منه حتى انفتحت خزانة عواطفها على مصرعيها، وبدأت تهتم بالمرآة أكثر من المعتاد، وتحرك أصابعها على وجهها، وكأنها تراه للمرة الأولى، تضغط على تقاطيع الوجه الذي ترك الزمن آثاره فيها، كأنها تريد محو هذه التجاعيد وتلك الهالات.

كانت حياتها غيرها بالأمس، فقد بات لها أملا جديدا في الحياة، قد بات لها شعاع من ضوء يجلى عتمة حياتها، لقد بات لها حبيبا، فباتت كأي محب ترى الجمال في كل شيء وترى المتعة في أهون شيء، وبات الحب مخدرا لكل الآلام والأوجاع التي تعانيها، فعلقت عليه كل آمالها لكي تهرب من قبرها المقيت التي تعيش فيه، وبدأت تغترف منه وكأنه دفئ الشمس تنهل منه لتتسلح أمام قسوة البرد.
وكل ما خلّفته زيجتها الفاشلة من فراغ ونضوب، عوضه الحب الذي ملأ كيانها، وأصبحت ساهية في نشوة لذيذة، نشوة تشبه سطوع بارقة أمل خلف ظلام اليأس الذي يعيش في داخلها، وأحست بصحتها تتحسن شيئا فشيئا، وبحيويتها تعود وكأنها في صباها، بدأت تكرس له من وقتها وقتا معلوما، ومن ذهنها جهدا

موفورا، حتى استعادت حبها القديم كاملا، بل أزداد قوة ولهفة، فازدادت هي جوعا واحتياجا للدفيء العاطفي.
بدأت تشعر وكأنها تعيش الحياة لأول مرة منذ سنواتٍ طويلة، وكل ذلك بعث في روحها حب الحياة من جديد، وتوالت المشاعر وتراءى لها أن الزمن يتمخض لها عن حياة جديدة، حياة جميلة سعيدة تعوضها عما فاتها، وكأن الحب أشعةً من نور أتية من السماء لتنير ظلمات حياتها، وكأنه الشفق يضرج الأفق في صباح باكر فيكسب الحياة جمالا فاتنا أخّاذا يأخذها إلى نهار مشرق مفعما بالحياة والسكينة.
وكانت تظن أن غريزتها للحب والحياة قد انتهت، بدأت هذه الغريزة تغزو قلبها وتغمر روحها ثانيةً، لقد كانت معرفتها به حبلا جديدا يربطها بالحياة، ولقد بنى الحب ما هدمه سوء الحظ في زواجها، فتبدلت حياتها بالكامل كأن محراث قد جرف أرض قاحلة، فأثمرت وأزهرت وطلبت المزيد.
أحست به يتغلغل في نفسها ويتشعب في قلبها، فبعد حرمانا عاطفيا طويل ذاقت متعة الحب ولذة الغرام، فاستفاق قلبها وتفتحت صماماته وتنبهت عواطفها وطلبت المزيد، وقد تضاعف الأمل وعلا الحلم وناطح السحاب وأصبحت لا تنظر إلى الحياة إلا من خلال ثقب الإبرة الضيق الذي لا ترى منه سوى رغباتها وأهواءها.
طفقت تحلم بالحياة معه في بيت واحد، في غرفة واحدة، في سرير واحد، كما أعاد الحب روحها إلى الحياة، أعاد غريزتها الجسدية، فطِن الجسد إلى كل المشاعر التي تصب إليها وتتدفق عليها، فبدأ يطالب بحقه في تعويض كل ما فاته من حرمانٍ

ونضوب وجفاف، لابد أن تروى الأرض الجافة بماء الحب حتى تثمر، وما يمنعها من لذة تقطفها ما دامت لن تخسر شيئا يذكر.

تطورت الخيانة إلى أقصى مداها، الخيانة الجسدية وليس الحرمان الجنسي هو الدافع الأساسي لخيانة المرأة، ولكن الحرمان العاطفي والحميمي، فقد تستعيض المرأة بهذا عن ذاك، ولكن التعود حيالها يجعله ينظر إليها - خاصة بعد فترة من الزواج - على أنها وعاء للجنس يقضي فيه رغباته ويفرغ فيه

نزواته دون أي اعتبار لعواطفها أو مشاعرها أو مقدار تمتعها من العلاقة مثله، فيتصرف إزائها بنرجسية شديدة.

فضمان الشريك بعد الزواج وعدم الحرص على إرضائه آفة عظيمة يعاني منها المجتمع العربي بأكمله، يقل الاهتمام وتقل الرومانسية وتنحسر الرغبة وينعدم التعبير، فالزوجة قد ربطت زوجها بالأطفال ولا داعى لإثارة نظر الزوج، والزوج ضامن لزوجته أين ستذهب من دونه ولا داعى إلى أن يلهب سمع زوجته، وكأننا سنخسر روحنا إذا حرصت الزوجة على ما يجذب نظر رجلها إليها مثلما كانت تفعل في وقت قد مضى، وكأن الزوج سيخوض حروب ضروس حين يلهب سمع زوجته ببعض الكلمات الرقيقة مثلما كان يفعل في وقت قد مضى، فكما أن الاهتمام لا يطلب كذلك إثارة الشريك العاطفية والحميمية لا تغفل.

وهكذا سقطت سلا كما تسقط الكثير من السيدات هذه الأيام، كانت الخيانة الإلكترونية سلبيها إلى الخيانة الحسية والعاطفية، فلم تلجم روحها وتسيطر على نفسها كما كانت تظن، فكانت الخيانة الإلكترونية - الغير مقصودة - في البداية والتي ما كانت سوى قليل من الفضفضة وإفراغ ما بالداخل من عذاب وألم سبيلها إلى الخيانة الجسدية، فمعظم النار من مستصغر الشرر.
يعاقب القانون على الخيانة الجسدية، ولا يعاقب على الخيانة الإلكترونية تلك الجريمة المدمرة التي هي سبيل كل مفسدة الآن.

****

تعجب خالد من كثرة خروجها، والتحول الغريب في سلوكها، واتخاذها مواطن الحيطة والريب في كل شيء، ولماذا اللهفة على الهاتف حين تنساه، لكنه لم يكترث لتحولات زوجته المتتالية، ظهرت التغييرات واضحة جلية، ولكن أين العين التي ترى وتشعر، اهتمام صارخ بالزينة مع كثرة الخروجات وبعض المشتريات، وتأخر دائم خارج البيت، هل تدلل مزاجها وترفه

عن نفسها بذلك؟ وهل تدلل مزاجها بالارتباك والخوف والمراوغة حين يسألها أين كانت، ولماذا تأخرت؟، وهل تدلل مزاجها بخاتم ذهب في عيد الحب.

جالت الأفكار وتواترت الوقعات في ذهن خالد، تذكر كيف كانت تضطرب وترتبك حينما يأتي فجأة، وكيف كانت تنهي المكالمات الهاتفية ملهوفة حين تراه أو تسمع خطوات قدومه، ربط بين كل ما صورته له هواجسه، وهكذا انطلقت في عقله خيالات وافتراضات لا عداد لها، فانبثقت من داخله نوازع الشك فهو كما السارق الذي يظن أن الجميع شاهده وهو يسرق، فالخائن يستشعر الخيانة من شريكه، ليس بفضل فطنته وذكائه ولكن بسبب تلوث نفسه وفساد روحه بها، فيشك في أي شيء، بسبب الهواجس التي خلقتها بداخلة فعلة الخيانة ، كما أنه يخونها مع امرأة متزوجة، فلما لا تخونه هي مثلها، والمرء يفترض غالبا فعل السوء لأنه يعطيه إثارة أكبر وإلقاءً للتهم والتي ربما يكون بها نزوع إلي الإحساس بالفوقية وأنه أفضل من ذلك الشخص فهو لا يفعل مثله حتى وإن كان يفعل أمرا أسوأ منه، فما بالك بزوج مستريب في زوجته، سيفترض السوء حتما بدافع الكرامة والطمأنينة لشرفه، فبدأ يفنّد ويفسر كل حركة صدرت عنها في الماضي.

مر الوقت عليه ثقيلا، وقد أصابته لوثة الشك فأصبح يتقلب على جمر من نار الشك، وهكذا تسممت أفكاره، وتنغصت حياته، والشك يقتله، فلا يملك دليل سوى هواجسه، وبدأت أعصابه تزداد احتراقا وكأن رقبته تجز بسكينةٍ تثلّم حدها فأصبح غير ماضي القطع، حيث الألم بلا نهاية.

أصيب بحمى الشك ووقع في أتونها المستعر، فلكل شيء ثمن لابد أن يرد وضريبة لابد أن تدفع، ولكل فعل مشين رد فعل في النفس يزيد الشك والخوف ويُفقد راحة البال، ولكل جريمة عقاب حتى لو لم يعاقب عليها القانون، فالعقاب النفسي أشد ألما من العقاب الجسدي.

تساءل في نفسه: هل تستغفله زوجته؟ وأمتقع وجه خالد وارتسمت الحدة على ملامحه، وبرقت عينيه من أثر أفكاره ونوازعه، وتلاحقت أنفاسه، وأنتصب وسار في طريقه إليها وقد مسك الغضب عقله، وأطار إحساسه بالإستغفال رشده.

سار إليها لا يفكر من كثرة الأفكار، وإنما عقله أختل من كثرة الشاردات والواردات، حتى تعثر في شيء، فاعتدل وكأنه أستعاد صحوة وأسترد عقله، وغمغم قائلا في حزم :لابد أن أتأكد أولا، أكمل وهو يهز رأسه نافيا :فما أنا بالرجل الذي يخان، ولا أود أن أفتري عليها كذبا، لابد من وجود دليل، حجة، لها أو عليها.

****

لم يمنعها الحب من أخذ مواطن الحيطة والحذر كلما ذهبت إلى رمزي، فقد كانت تدرك بأن زوجها يشك فيها وربما يراقبها، وبقدر الخوف الذي شعرت به، بقدر الرغبة في جعله يعاني، وستلعب الآن على إثارة الشك فيه وقتله به، لم تعد تخشى شيء، فكانت تنظر إلى شكوكه وهواجسه في لذة، لذة التشفي والشماتة من حيرته وغيرته.

فكان خالد يأتي فجأة وفى غير مواعيده المعتادة، ويخبرها أنه لن يأتي هذا اليوم ثم يأتي، وفى كثير من الأحيان كان يدخل أو يتحرك على أطراف أصابعه، وكأن هناك أحدا نائما يخشى أن يوقظه، وفى مرات أخرى يهاتفها في فترات قليلة ليسألها عن أشياء تافهة، وهي تفهم كل ذلك وتستمتع بعذابه، وتخبره أنها ستخرج وتتأخر اليوم ثم لا تخرج وقد أتى وفي نيته مراقبتها، وبدأ يشعر بأنها تفهم ما يعتمل في داخله، فقرر أن يتريث قليلاً ويهدأ حتى يزن الأمور، وحتى يراقبها دون تسرع، وأن يحاول الاتزان أكثر من ذلك، وقد هدأ وبدأ الشك يفتر في داخله ويشعر أنه ظلمها لا أكثر.

****

توالت اللقاءات بين سلا ورمزي، وأصبحت تتجاوب مع رغباته كلها بسخاء، وكانت تعامله كسلطان له حريمه الكثيرات، فكل لقاء تأتيه بمزاج مختلف وتتلون بلون جديد من الرقة والإقبال والانفعال، تقمصت الشخصيات بخيالها الخصب المزود بالثقافة، فتتلقى الكلمات والمداعبات في كل مرة بطريقة مختلفة تنم عن شخص مختلف متنوع متشوق ويتحرق شوقا للمتعة، وتكشف

عن عذوبة كبيرة في الفراش ودلال أنثوي مثير، لم تكن تعرف في نفسها القدرة على فعله، وكان تواصلها الجسدي معه متبادل وعنيف، ترتاد جسده وتزرعه بقبلات ومداعبات من أصابعها الناعمة الملتهبة فتدغدغ جسده، وتطلق كلمات تجعله أكثر إثارة فيغرقان في نهر متدفق من التأوهات مصحوبة باللهاث العرق.

وكانت تتعجب وتتساءل في نفسها: لماذا كانت في قمة الخجل مع خالد؟ بل ولماذا عدم الرغبة هي أكثر ما تشعر به عندما تتلاقى مع خالد، ويلمع عقلها بالمقارنات.
وكلا منهما وجد في الآخر ما لم يجده في شريكه، وجد رمزي فيها ما لم يجده في زوجته، فان العشيقة تخدم على الرجل بأنوثتها مثل عروس في شهورها الأولى بعد انحسار فترة الحرج والخجل، تغمرها اللهفة والشوق، بأنوثة مرحة فرحة سعيدة باللقاء بعيدا عن منغصات الحياة والشكوى الدائمة والمشاكل المتواترة، فتكون في أوج عطائها الجسدي والنفسي، وتستجيب له بكل ذرة في نفسها وجسدها وتتفاني في شوق عارم، لأنها تتحرر وتتجرد من تلك الأعباء المحيطة بالزوجة، فيكون اللقاء عاطفي أو جنسي فقط، لقاء للمتعة دون منغصات أو مكبلات، وبالتالي يكون ألذ وأشهي وأمتع للرجل وللمرأة أيضا.
ولو تزوج الرجل عشيقته تفقد هذا السحر وذلك البهاء، لأنها ستقوم بنفس أعباء الزوجة ومشاكلها ومطالبها في الحياة اليومية، وبالتالي تفقد جاذبيتها وفتنتها، وتفقد اللهفة والحرارة، ويصبح اللقاء عملا روتينيا، وجبة تأكلها فقط لأنها موجودة على المائدة ولا بدّ أن تأكل، ولو علمت الزوجة كيف تعامل زوجها كما تعامله العشيقة، وتسقط كل القيود والاعتبارات المجتمعية -

ماعدا المحرم منها - لاستطاعت أن تحيك له خيوط صلبة من الروابط والدوافع والمتعة ولتحولت هي إلى زوجة وعشيقة في آن واحد، ولأدي التجدد في علاقتهما إلى التناغم وتقوية حبل الرغبة بينهما، ولأدّي التناغم في علاقتهما إلى التناغم في حياتهما.

****

مرت الأيام عليها وهي تحمل في أوقاتها سعادتين، سعادة الحب وسعادة عذاب زوجها، ثم تبدل الحال فجأة، وأضحت تائهة متوترة، ثمة ثقل يجثم على أنفاسها، أصبحت تعيش في حالة سرحان دائمة وبكاء مستمر، وفى بضع أيام شحبت، ذبلت، انقبض وجهها، فقدت شهيتها للطعام، أخذت حالتها النفسية تسوء شيئا فشيئا، تشعر أن جميع الناس ينظرون إليها بعيون واسعة فاحصة وباحثة عنها، كانت تتحرك مسرعة وفي خفة لص يتنقل بين الشوارع خشية أن يعثر عليه أحد، كانت تلهث وكأنها تسابق

شيء، ثمة شبح دائما يلاحقها، وكأن هناك شيء مخيف تفر منه، ولا تراه عيناها التي لا تلبث أن تستقر في أي وضع، وإنما هي قلقة مرتابة دائما.

وكأنها في صراع مع الموت، كانت سلا تسير وبداخلها مشاعر متضاربة تعتصرها، ففي أوقات وديعة مبتسمة لا ترى شيء سوى النجوم في السماء وتارة مجنونة ثائرة كمثل أسد به جروح غائرة، تارة ساهية في لا شيء، سارحة في خيال ليس به شيء وكأنها تدرب عينيها على رؤية اللا شيء، فلا ترى شيء ولا تشعر بشيء، إنما هي شاردة في أحزانها، ضائعة في أوهامها، مستغرقة في خيالاتها، وتارة أخرى مستشعرة كل حركة وكل كلمة وكأن شخص يوجه لها تهمة ما، ضعيفة وخائفة من كل شيء، كطفلة فقدت أمها في زحام شديد، غزت الكوابيس منامها، فكانت تهب من النوم صارخة مفزوعة، وكأن وحشا هائجا يهاجم حلمها.

ملأتها مشاعر السخط تجاه كل شيء، وكل شخص، هاتفها رمزي ليطمئن عليها، فمن بعد اللقاء الأخير لم يعرف عنها أي شيء، اللعنة على كل أسباب الاتصال - قالت بحنق ثم ألقت وعقلها واعي كل الوعي بهاتفها في الحائط- ، دفعته بكل قوتها صارخة، فدوي صوت الصرخة أعلي من صوت الارتطام، تهشم الهاتف وتناثرت أجزاءه، عبثا حاول خالد أن يستفسر ماذا حل بها، لملمت أجزاءه، عبثا حاولت فتحه، تريد مهاتفة أختها، من مِن كل مليارات الكوكب يستمع لها ويعي ما بها غير أختها، فالأخ وطنا عندما تضيق الحياة بنا، وسلوى عندما تتكاثر الأزمات علينا، وسيفا حينما تكثر القيود حول رقابنا.

يأتي خالد برقم أختها متعجبا، هل جنّت هذه البائسة، لا تجد كلاما تخبرها به، أكثر ما يوجد عندها الآن هو البكاء، لا تستطيع أن تفصح عما يعتلج بداخلها، ماذا تقول؟ هل تخبر أختها بما قاله الطبيب، وكيف ستتقبل أختها هذا الكلام، أخبرها الطبيب أنها حامل في شهرين خبر جميل في ظاهره سيفرح به الجميع، ولكن ماذا لو علموا أن هذا الجنين ليس ابنها من زوجها، بل من عشيقها، تتذكر جيدا لم يقترب خالد منها في الفترة الأخيرة، ضمير ها يؤرقها، يأجج ألامها، فأنخرطت في البكاء.
الأن تدرك أنها كانت معصوبة العينين، لم تخن عن شهوة، فالشهوة عندها روحية ولا تستلزم اللقاء الجسدي، ولم تخون عن حب فقد أحبت سابقا، اعتصرتها الأفكار، إنما الخيانة درجات، وإذ بها تترك الخيانة الأقل تغزو حياتها حتى سارت بها إلى الخيانة القصوى، فمن يوارب الباب تجاه الرياح، لا يحصد إلا بيتا مفتوحا على مصراعيه، وقد ارتدم بيته ترابا، وهزت العواصف كيانه.

وكانت تتساءل هل غدر بها؟ لا لم يخدعها ولم يغدر بها وإنما هي التي كانت منقادة بعاطفة من رجل أتي في وقت غير مناسب، ودائما ما يدخل الرجل في حياة السيدة المتزوجة في وقت غير مناسب لتعي، ومشاعر غير مستقرة لتحسم.
فهل خانت بفعل الزمن؟ هي خانت، هل خانت بفعل المشاعر غير المستقرة؟ هي خانت، لماذا حدث لها ذلك؟ وكيف قامت به؟ استنامت لكل شيء، سيقت وهي مفتوحة العينين ولكنها لا ترى، كانت محاطة بسياج من الوحدة الزوجية وسور من العزلة النفسية، فأتي لها بمفتاح يخرجها من حبسها وحزنها، فكانت

فرحتها كما المسجون، الذي رأي أحدا ما يحاول أن يفتح له الباب ليهرب من كل تلك الأشياء المحزنة، فخرج فرحا مهللا، وقد سرقت الفرحة تساؤلاته، وغلب عليه الامتنان، فلبي الطلبات وكأنها مكافأة مأخوذا بتلبيتها، فاستكانت لحضنه كما يستكين الفرخ الصغير لأقرب حائط يميل إليه ويستند عليه، وقد يفعل المرء أمرا لا يفعله في بقية حياته، ولكن بعض الأفعال تكون المرة الواحدة فيها قاضية.
تنهي المكالمة كما بدأتها، لا شيء سوى البكاء وبعض التمتمات الغير واضحة، تطلب من أختها أن تسامحها مهما حدث.

****

تأتي رسالة إلى زوجها، لا تكترث، تأتي رسالة أخرى تلاحقها وكأنها تسابق الأولى، مدام نوال، تعلوها الدهشة.
تقرأ الرسالة الأولى: اشتقت إليك كثيرا، لم أشبع في لقاء الأحد فقد كان سريعا.
تفتح الثانية: زوجي سيسافر غدا الخميس، وسأرسل الأطفال إلى جدتهم ليخلو لنا الجو، ولنعيش يومين كاملين متعانقين.

لا بدَّ للحظ أن يلعب دوره، ثمة دور دائما للحظ في حياتنا، يتكفل بعمل أشياء ما كنا نستطيع فعلها بدونه، ويكشف لنا عن أسرار ما كنا لنعرفها لولا دوره، يعبث يهدم ينصر ويقهر، فالحظ هو أحد خدمة القدر ومنفذي أحكامه.

الآن تعلم من هي السيدة التي استولت على زوجها، وذادت من مشاعره السلبية تجاهها، ماذا سيفيد الآن، كلنا خائنون، لا أحد أسوأ من أحد، وهمت بإلقاء الهاتف بعيدا، ثم وكأن وميض ما اشتعل في راسها فتساءلت: ولكن من تلك التي تحب رجل كخالد؟ من هي تلك؟ انتصرت دوافع الأنوثة على اللاكتراث، ورغبت في معرفة غريمتها تلك.
تبحث في الترو كولر عن رقمها، شخصت عينيها، أرتفع حاجبيها، تقلصت ملاح وجهها، فغرت فاها الصغير، ارتسمت على وجهها كل علامات الدهشة، كانت هذه أغرب مفاجأة حدثت لها في حياتها، تدقق أكثر، تتأكد، تستجمع أنفاسها، تطلق ضحكة ملؤها الحزن المقترن بالعبث والفزع وجلست مشدوهة.

رجع خالد لكي يأخذ هاتفه، اصطنعت اللامبالاة وأطرقت كما المعتاد رافضة الإجابة عن تساؤلاته، يقول إنها لا بدَّ أن تذهب إلى الطبيب النفسي، تمتمت بصوت مسموع: فعلا، سأذهب إليه، أريد أن أفهم ما يحدث.
غيرت ملابسها في عجلة، لم تغير ملابسها بدافع الأناقة، ولكن بدافع الحصول على غرض ما، انطلقت مسرعة، عينيها مفتوحة ولكنها لا ترى شيئا وقد جرفتها الأفكار.

ركب أحمد سيارة أجرة وجلس بجوار السائق الأربعيني الذي يبدو عليه علامات السعادة وهو يتحاور في الهاتف، وكعادة أحمد سماعة الأذن تفصله عن كل ما يجري في هذه الشوارع البائسة وهذه المخلوقات العابسة، يستمع لأي شيء يفصله داخليا عما يري، ويجعله دائما في سياج من الانفصال الروحي عن الجميع.

ولكن وكما المعتاد يرتفع صوت الراديو، لا بدَّ لصوت الأغاني في المواصلات العامة أن ينغص عليك أي ما تفعل، حتى وان كنت لا تفعل شيء، فإنه ينغص عليك اللا شيء الذي تعيش فيه!
يطلب أحمد منه أن يخفض الصوت قليلاً، يخفض الرجل الصوت، قائلا بفرح:
أسف جدا يا أستاذ فأنا اليوم سعيد جدا، بل أنا أسعد إنسانا على وجه الأرض، لست فقط فرحا، بل أنا طائر من الفرحة، أشعر وكأني أقود طائرة لا سيارة.
رد أحمد مبتسما: زادك الله فرحا على فرحك
استطرد السائق في سرور، وقد انطلق وهو يسأل أحمد هل تعرف يا أستاذ لماذا أنا سعيد جدا اليوم؟
لم ينتظر جواب أحمد الذي اكتفى بنظرة وإيماءة مفادها أن يستكمل: من لحظة واحدة أخبرتني زوجتي أنها حامل، بعد سبع سنواتٍ من الزواج، كنت قد قمت بالكشف عند كل الأطباء، وكنت قد شارفت على اليأس، واليوم تأتي الساعة التي انتظرها منذ سنواتٍ.
واسترسل الرجل في حديثه يستكمل ما بدأه، فقد غمرت السعادة قلبه، وسيطر القلب على العقل فصار يتحدث كما لو أنه يتحدث إلى أحد إخوته لا إلى مجرد راكبٍ عابر، ولكن قد نقول للغريب العابر ما لا نستطيع قوله للقريب الدائم، فما أجمل النفوس حين يغمرها السعادة، وما أجمل البوح حين يغمرنا الرضا، وما أجمل أن تجد من يستمع لك ويدرك مدي سعادتك فتبوح له بخلجات فؤادك دون أن يضمر لك شيء من الحقد أو الحسد أو حتى يستكثر عليك هذه السعادة ، ما أجمل أن تبوح بما في داخلك دون

أن تجد ما يعكر صفوك من ردود و تهكم أو إيماءات، ما أجمل أن تتحدث عن مشاعرك دون خجل.

تحملتني كثيرا، كانت تمتص عصبيتي وكلماتي الجارحة، كانت تقدر تعبي وإرهاقي وتشفق على من التحامل على نفسي في العمل، كنت أتضايق وأستشعر الحرج والكسوف فأذهب لأصالحها، أجدها متفهمة الموقف، لا تذكرني أني قلت كيت وكيت وفعلت كذا وكذا، لولا هذا التغافل الواضح منها لكنا منفصلين الآن ومن سنين، فإن من حسن أدب وجمال المرأة ألا تذّكر زوجها باللحظات السيئة التي ينفعل فيها ويخرج عن شعوره، وألا تضع أخطاء زوجها تحت الميكروسكوب، وكذلك هو، وهو ما تعلمته بالتدريج، فالإنسان لديه عدسات مكبرة لا تظهر إلا على أخطاء الأخرين، ولذلك تحل أي مشكلة بيننا بسرعة، ولا تدوم لتبقي في النفس تراكمات فوق تراكمات فتتعقد بعد ذلك أيسر المشاكل بفعل الرواسب الصغيرة التي تُترك في النفوس.
بل كانت تسعى إلى حل جميع الخلافات قبل الذهاب للنوم، فقد كانت تقول إنها ترغب في استقبال يوما جديدا بفكر جديد، متجاهلة هذه الأفكار السلبية التي قد ترافقها في منامها، وتنعكس عليها في صباحها.
قال السائق بعدما مرر لسانه على شفتيه: يا الله على كوب العصير الذي تأتي به لي عندما أدخل البيت جوعانا مرهقا، تأتي بالعصير الطازج البارد حتى تعد أو تسخن الطعام، فيبرد في جوفي لهيب الجوع.

وأنت تدري ما هو تأثير الجوع على الرجال - قال باسما- ثم واصل:
كانت تنهي سائر أعمالها قبل مجيئي لتكون نظيفة مهندمة أنيقة ناعمة حينما أعود إلى البيت، والشقة ينبعث منها شذا احتراق عود البخور الذي أفضله، ودائما وأبدا كانت زوجة حكيمة تختار الوقت المناسب لمصارحتي بالأمور السيئة، كانت تقول لأمي لا يعقل أن تقابل الزوجة رجلها عند الباب بحديث جاف وهو ما زال محمل بأعباء العمل، فتثير بداخله النفور والاستياء فتجعله لا يحب القدوم إلى البيت، كانت دائما صريحة واضحة لا تكذب مثل عادة النساء خاصة في أمور المشاكل العائلية، فقد كانت أمي تعيش معنا، وكانت أمي غير مرحبة بها، لأنها تريد أن ترى لي أبناءً قبل وفاتها، وكانت صراحتها هذه تخلق بداخلي شعور بالراحة والثقة، ومحاولة تقريب وجهات النظر، وما كانت دائما هي المخطئة، ولكن هي دائما من كانت تعتذر وتستدر العفو إذعانا لأوامري أو إلى رجائي.
كانت حياتنا صعبة في البداية، وكنت أصب عليها جام غضبي، كانت أمي تقول إن زوجتي ستتعذب من عصبيتي وبعدما كنت أثور لأتفه الأسباب، وبفضل حكمتها ورويتها، أصبحت أكثر هدوءا وأكثر اتزانا، حولتني إلى إنسان آخر، وهكذا هو دور الشريك الذي يقوم لك بدور الطبيب، طبيبا نفسيا يشفيك من كل اعوجاجاتك ويسلبك كل أسباب انفعالاتك ويجعلك شخصا أخر، شخصا أفضل.
كانت تقول إنني أعاني من أجلها فلا يصح أن تجعلني أعاني في بيتها، أكد وأتعب لكي أحصل على الجنيهات لأعطيها لها لكي تدير حياتنا فكانت نعمة المدير، فما كانت تسرف في شيء، وما

كانت تجلب شيئا يحملنا أعباء كثيرة، وبعدت عن كل ما يتظاهر به الناس بعضهم على بعض، وكانت تقول إنها لا تعبأ بما يعجب الأخرين، وكل تفكيرها فيما يعجبها ويعجب زوجها ويخف عنهما قدر الإمكان، فخففت أعباءنا قدر المستطاع حتى تحسنت أحوالنا.

سكت الرجل ليلتقط أنفاسه ثم أستطرد:

المرأة اللي تدرك كيف تتعامل مع زوجها نعمة في البيت، تشعر به دون كلام، تفهمه من نبرة صوته من شكله وحركته، تدرك انفعالاته أثناء حالاته النفسية المختلفة واستجاباته للأمور نفسها في الحالات المختلفة، تعلم متى تطلب منه ومتى تخفي عنه المشاكل، فتنهل منه الزبد في لحظات صفائه، وتبعد عنه الضيق في لحظات عبوسه، تدرك عادته الروتينية التي قد تظهر في غاية الملل، والتي لا يمكن تغييرها فتحاول معه برفق، وإن لم يكن، تتقبلها بصدر رحب وحب وحنو فتحيل حياته في البيت إلى جنة، فبعض الأزواج يتضايق حينما يدخل بيته وكأنه داخل إلى الجحيم والبعض الأخر يدخل إلى البيت كما يدلف المؤمن عدوا إلى الجنة.

أما أنا فكنت أحزن عند الخروج من البيت وأشعر بالسعادة عندما يحين موعد عودتي، فقد كانت تودعني بقبلة رقيقة وتستقبلني بإبتسامة حلوة ورائحة عطرة، وكل يوم تزداد عناية بي وتمسكا، حتى استطاعت بضعفها وحنانها الأنثوي أن تنسيني رغبتي في الولد.

السيدة التي تدرك كيف تعامل زوجها وتدرك طبيعته هل هو منغلق أم منفتح، سمعي أم بصري، عقلاني أم وجداني تعلم من أين تؤكل الكتف، وتحيل حياته إلى نعيم وينعكس ذلك عليها

وعلى أبنائها وعلى بيتها فيصير قطعة من الجنة، حتى لو وجد بعض الكدر الذي لا تخلو منه البيوت فقد يخلو ملح الطعام ولا يخلو الكدر، ولكن بفهم الطبيعة واللين وقليل من الصبر والتضحية تستحيل أوقات الكدر إلى شجيرات تنبت في القلب فتبني للأخر بيتا يستظل به وتحمي حبه في القلب من منغصات الحياة وأعبائها، وعندما يضيق الحال تكون أفضل سند.

****

يا سلام - قال الرجل ملحنا الكلمة في استمتاع مذهل، استجلب ابتسامة ونظرة مترقبة من أحمد.

أدرك أحمد أن الرجل كان في حوج شديد إلى أن يفيض بما يعتمل في داخله أو لعلعه يريد أثبات صحة نظرته، فلا شيء يسعد الإنسان كصحة نظرته في أمر، ما فما بالك بإن تصح نظرتك في إنسان.

وهكذا انطلق السائق وكأنه لا يعرف كيف يوقف لسانه، وكأن سدا من الحروف انفجر فتدافعت الكلمات وتصارعت الأفكار والرؤى.
قال السائق بعدما سكت هنيهة وكأنه يستعيد شريط الذكريات ويستجمع ما سيقوله:
استأجرت أرخص شقة ممكنة قابلتها أثناء خطوبتي، كانت حماتي تقول إنها ما كانت تنتظر أن ترى ابنتها تسكن في عشة الفراخ هذه، وامتعضت وتبرمت شقيقتها فقد كانت شقة صغيرة مكونة من حجرتين فقط وصالة صغيرة، كانت حماتي تحتار أين ستضع جهاز ابنتها، فطلبتُ منها أن تقلل قدر الإمكان، وتأتي فقط بالأشياء الرئيسة، وبعد ذلك إن فتح الله علينا سننتقل لشقة أكبر ونشتري كل ما يلزمنا، وليس لزاما أن نكدس المشتريات التي لا نحتاجها في الفترة القريبة ونحمل أنفسنا أعباء مستقبلية، وهكذا على مضض وبضغط من زوجتي ووالدها وافقت حماتي على هذه الشقة التي كانت قريبة من أماكن عملي.
وكانت زوجتي تقول إن كل هذه الطلبات والأشياء أمور تافهة غير مهمة وليست هي بالأساس الذي نبني عليه حياتنا، ولكن نبنيها على الحب والتفاهم والتقبل وتقدير مجهودات الآخر أي ما كانت، وكانت تحرص على فهم طباعي جيدا.

كانت قارئة مثقفة أتاح لها تعليمها ودراستها الجامعية نوع من الهدوء والاتزان والتعقل، فكانت تعرف من أين تؤكل الكتف، وذلك والله هو أهم ما في التعليم، كانت تسرّي عني ولا تجعلني أشعر بأنني أقل من غيري مالا، فكانت تقول لي أن المرأة تتزوج الرجل ولا تتزوج الشقة والعفش، وكانت تردد مقولة الكاتب الكبير إحسان عبدالقدوس أن الرجل هو البيت وليس البيت هو الرجل، فجعلتني أؤثث البيت بأقل تكلفة ممكنة، رغما عن أمها وشقيقتها، أما والداها فكان طيبا مسالما لا يعبأ بهذه المظاهر الخادعة التي تغر النساء، كانت تقول إنها استغنت بحبي عن كل شيء، وأن الحب هو زينتنا التي سنتزين بها وسط الجميع، وقد رفضت من كان وضعه المالي أفضل مني بكثير لأنها لم تشعر معه بالتوافق.

كانت تريد حفلة الزفاف صغيرة ضيقة لا زحام ولا صخب، لأنها كانت تعلم حالتي المادية، وكانت تقول إن الزوج حينما يقترض ويستدين ليتم زواجه يلقي على حياته الزوجية عبئا ثقيلا كان من الممكن أن يتحرر منه، وكانت تقول إن فرحتها بي تغنيها عن كل شيء، وإنها لن تشعر بالموسيقى أو الناس أو الزينة وكل ما ستشعر به فرحتها بين أحضان زوجها وحبيبها، ولكني قررت أن أرضي أمي وأسرتي فأنا كنت أول فرحتهم، ومضت أيامنا سعيدة هنية في غالبها رغم الضغط الذي عانيته من أهلي، والذين كانوا يطالبونني بأن أطلقها وأتزوج غيرها، أو أتزوج مرة أخرى، لكي أنعم بالولد الذى يحمل أسمى مثل كل الناس.

تنهد الرجل وأطلق زفرة خرجت من أنفه في دلالة على الآسى ثم قال:

ورغم ذلك كانت دائما تحسن لأمي الله يرحمها ، كانت تساعدها وتقوم بسائر الأعمال لها، تطبخ أفضل الأكلات وتسألني ماذا يحب أخي وزوجته من الطعام، كانت دائما ترفع رأسي أمامهم وهذا والله لشيء عظيم في نفسي، ويقوي العلاقة الزوجية أيما قوة، ولكني كنت أستشعر الحزن في عينيها حينما تشعر بالجفاء في معاملتهم، كانت تحاول استرضائهم فلا يرضون، كانت تحاول أن تظهر لهم معدنها الحقيقي لكنهم لم يروه أبدا، ليس لأنهم لا يروا وإنما لأنهم لا يريدوا أن يروا، فالإنسان يري ما يريده وليس الحقيقة، كانوا لا يرون إلا أنني تزوجت عانسا، قارب عمرها الثلاثين، غير جميلة كما يروها، عاقر، كل ما بها منفر، ولكنها كانت تلتمس لهم كل الأعذار التي بوسعهم تجاوزها، ولا يغفرون لها أعذارها التي لا دخل لها بها.

سكت الرجل وكأنه يستذكر شيء ثم واصل حديثه تحت نظرات أحمد المراقبة:
أطالت مدة الخطبة كثيرا حتى خلتها تتهرب من الزواج، كانت تريد أن تعرف حقيقة مشاعرنا كاملة وكأنها تقوم بدراسة جدوى لمشروع الزواج، فهو مشروع بناء في المقام الأول والبناء يحتاج إلى أساس صلب كما كانت تقول، وكانت أيضا تقول إن الفراق في الخطوبة قبل الزواج أيسر كثيرا من الطلاق بعد الزواج، فهي من جهة لا تحب الفشل ولا تحب أن تصير مطلقة، ومن جهة أخرى لا تريد أن ينصب حمل الطلاق على أطفال أبرياء ليس لهم ذنب، وعلى قدر ما كنت أخاف من كلامها هذا، إلا إنني كنت أستريح لجميع أفكارها.

وسأقول لك الآن ما أنعم الله على باختيار فتاة كهذه، الأسبوع الماضي، إبن عمِ لي كان قد طلق زوجته، ولم يمضِ على زواجهما عامين، تلك الزوجة التي كانت على استعداد لأنَ تفسخ الخطبة لأنه عزم على عدم شراء سفرة أو شيء من ذلك، فقد ترك عمله الذي كان يدر عليه أجرا مقبولا لظروف خارجة عن أرادته تتعلق بإفلاس الشركة، وبالتالي انتقل إلى عمل أخر بعد فترة قليلة من البحث ولكن بأجر أقل من السابق، فأثّر ذلك على أحواله المادية، فعزم على تخفيض بعض المطالب وإلغاء بعض الأشياء التي ليس لها أهمية في البيت، لكي يتسنى له إتمام الزواج في وقته، ولكن كثرت الخلافات وذاد الجدال وانتشر التهامس والتلقيح، فلان لهم ضاربا مع الديون عقد إضافي طويل الأمد، فضاقت حالته وما زالت زوجته تناطحه وتعانده بأقاربها وجيرانها ولا تستخفف في طلباتها بل تزداد وكأنها تتلذذ بوضع المنغصات في حلق زوجها، وكأنه قد وقع على كنز لا قل دخله - هذا ما قاله لي في المرة الأخيرة- ، حتى أثقلته الديون، وذادت مكدراته، وأرهقته الخلافات والندية والإهمال، وعظم عليه مقارناتها الدائمة له بأزواج معارفها، وفعل المقارنة هذا يحيل كل ما هو جميل إلى قبيح ويجعلنا نغلق أعيننا عن الحسنات ونفتح ملؤها على السيئات، ولو عكسنا المقارنة وظهرت سيئات الأخر لحمدنا الله على ما لدينا من نعمة وعرفنا قيمة ما بأيدينا.
ثقل كل هذا الحمل عليه فطلقها، وماذا تنتظر من ميثاق غليظ كان سيفك بفعل قطعة خشب، أو كما حدث لاحد الجيران أن فسخت الخطبة من أجل خلافات بسيطة على أمور مادية كحفل الزفاف أو فستان الفرح أو أي شيء من هذا القبيل.

سكت لحظة وتنهد تنهيدة طويلة تحمل بداخلها كل الآسى والحزن لقريبه هذا، ثم تحدث قائلا:
كان يبحث عن فتاة جميلة الشكل ليستمتع بها، مثلي ومثلك ومثلنا جميعا، ولكننا ننسى أن الجمال الحقيقي هو جمال الروح والعقل، المرأة حينما تكون جميلة الروح ذكية العقل تجعل البيت سعيدا حتى بأبسط الوسائل، ولكننا نجري خلف جمال الشكل دون النظر إلى الروح، ومن خبرتي في الحياة أستطيع أن أقول: أنه ليس سهلا أن تجد جمال فائق في الشكل مع جمال كبير في الروح أو قوة في العقل، وبالتالي يؤثر ذلك على استمرار الزواج ويحدث الطلاق، حتى باتت مصر أكثر دول العالم في معدلات الطلاق، ففي إحصائية قديمة كان هناك 172 ألف حالة طلاق سنويا، أي أن هناك حالة طلاق كل ثلاث دقائق والأمر في ازدياد مستمر، فما بالك في هذا الوقت الذي يسيطر فيه الفكر المادي والغالبية تنظر إلى المال والوظيفة قبل الأخلاق والدين، نسوا كل أحاديث الرسول الذي يؤمنون به والله الذي يعبدونه وجروا خلف الأموال والأشكال.
نظر السائق إلى أحمد وقال في تحدي:
نعم كانت كبيرة السن بالنسبة لزوجات أقاربي وأصدقائي، وكانت أقل جمالا - على حد قولهم - من زوجة أخي أو إبن عمي، ولكنهم لم يروها بالعين التي كنت أراها بها، فأنا كنت أنظر لها بقلبي لا بعيني، وكان كبر سنها - كما يدعون - أفضل شيء في حياتنا، فقد كانت فتاة ناضجة متفتحة واعية بمشاعر من حوالها، مدركة كيف تعامل الجميع وتكسبهم في صفها، كان حبها ناضجا ومبني على أساس قوي، وليست طفلة أو فتاة صغيرة مراهقة لم ترشد بعد، تعيش في رومانسية زائفة ثم تصطدم بالمسئولية فتفر

منها وتختلق المشاكل بحماقتها وضحالة فكرها وتفاهة عقلها وحداثته في التعامل مع أناس مختلفين في الطبيعة والفكر عمن تعاملت معهم في بيت أبيها، وإن زواج الفتيات الصغيرة وزواج القاصرات جريمة حقا ترتكب في حق الفتاة، التي تكون صغيرة وساذجة بالقدر الذي يجعل من دراستها للموقف أمرا مستبعدا.
كانت دائمة مختلفة عن الجميع، كانت عكس شقيقتها ترتدي في المنزل أفضل الثياب - سكت السائق وكأنه استفاق فجأة ونظر لأحمد ولكن عقله واصل التذكر ولسان حاله واصل التحدث- كانت ترتدي في المنزل أفضل الثياب تلك التي تبرز أنوثتها، وتضع أفوح العطور تلك التي ينتعش ويستمزج بها، وتتزين أروع الزينة التي تجعله لا يمل من رؤياها، حتى إنه كان كثيرا ما يترك العمل ويذهب لتناول الغذاء معها.
رفع صوته إلى أحمد ثانية بعد لحظات من السكون:
كانت أختها تقول لها أن هذه القطع الغالية وهذه الزينة الراقية نفعلها عند الخروج وأثناء الحفلات وعند الزيارات، فكانت ترد عليها وتقول إنها لا يهمها أن يري الناس ذلك عليها، فإنها تزوجت زوجها ولم تتزوج الناس، وأن تلك النساء البلهاء اللاتي يتعاملن بمنتهي الرقة والأنوثة في الملبس والمأكل والأحاديث مع الغرباء، بفم باسم ونبرة ناعمة، ويتعاملن مع أزواجهم بغير ذلك، إنما يسعين لإبهار الأخرين وذلك لنقص بداخلهم، أما أنا فلا أسعى إلا لإرضاء زوجي، وأن الملابس والعطور وكل أدوات الزينة إنما اشتريتها لزوجي لأظهر أمامه في أبهى حلة وفي جمال يرضيه ولا اهتم لرأي الناس ولا اهتم في أن أبدو أمامهم جميلة، ولذلك ارتدي أجدد الثياب وأضع أفضل الزينة في البيت

عند قدوم زوجي ولا يهمني ماذا ارتدي عند الخروج بقدر ما يهمني ما ارتديه أمام زوجي.
نظر له أحمد متعجبا من صراحته ثم استطراده المتواصل، الرجل خلع عباءة السائق الرجل البسيط وصار يتكلم لغة وفكرا لا يدلان على بساطة شكله أو عمله.

أكمل السائق بعدما فهم من نظراته المتتالية إلى أحمد أنه يتقبل كلامه ويتجاوب معه بإيماءات تدل على الموافقة والارتياح:
وأنا على العكس تماما من الكثيرين، فغالبا ما أجد الجمال الباهر في الشكل يصاحبه الغرور وضعف العقل واختلاق المشقّات، فغالبا من تكون جميلة الشكل باهرة الطلعة، لا ترغب سوى بالمحافظة على جمالها، وأن تظل دائما مصدرا للإبهار، وهذا ما عانى منه إبن العم هذا، وعلى النقيض تماما الجمال الهادئ أو القليل تجده في أحيانا كثيرا مرتبط بجمال الروح والعقل فتراها جميلة بل أجمل الجميلات، لأنك تراها بروحها لا بجسدها، وجمال الروح لا يبلي عكس جمال الشكل الذي تزهده بعد فترة قليلة من التعود.
وهذا هو ما جعلني سعيدا جدا في زواجي، وليس معني ذلك أنه لا توجد منغصات في حياتنا، بل توجد، ولكننا نتفاداها بسهولة ويسر، فنهدم المشاكل في مهدها ولا نتركها تنمو وتكبر وتترك رواسب في أنفسنا، تجعلنا نثور في وجه بعضنا البعض لاحقا ولأتفه الأسباب.
ما زال أحمد يستمع له فرحا بعقل سائق من طبقة كادحة لا تفكر سوى في كيف تجلب العيش اتقاءً من الموت جوعا، أن يكون

عقله قادر على ثبر أغوار موضوع كهذا بنظرة فلسفية كهذه يعجز حتى النخبة عن تطبيقها.
فهم السائق نظرات التعجب والإعجاب في عين أحمد، أستملح السائق هذه النظرات فدفعته لاستكمال ما بدأه، حقا لا شيء يدفع الإنسان إلى المواصلة سوى نظرات التقدير والإعجاب بما يقدمه، وتحدث كمن له خبرة سبعة قرون في الزواج لا سبع سنين:
أتعلم يا أستاذ، الكثير من حالات الطلاق تحدث في السنين الأولى من الزواج لأننا لا نجيد تقبل الاختلاف، ولا نعرف كيف نحقق التفاهم، وكل الزيجات تصادف تقلبات وشعور بعدم التقبل والإحساس بالتعاسة من المسئوليات والأعباء الجديدة، خاصة في السنين الأولى من الزواج، ولكن بالتفاهم والتقبل تتحول هذه المشاعر السلبية إلى مشاعر إيجابيه وتعم السعادة لتغمر الحياة، فالحياة الزوجية ملاحة صعبة في بحر هائج، بوجود رياح عاتية وأمواج ثائرة، وعلى ربان السفينة أن يستعمل كل فنون الصبر والتفاهم والتنازل والخبرة والنظرة البعيدة حتى يصل بحياته الأسرية إلى شاطئ السعادة.

واصل الرجل كأنه يقرأ من كتاب: والتفاهم هذا لا يخلق عبثا، وإن لم يتواجد في البداية نخلقه لكي تستمر الحياة، فمثلا جعلتني

زوجتي أقرأ مثلها وكانت تقول إن إيجاد قاسم مشترك أو هواية مشتركة بين الأزواج لهو من دعائم استمرار الحب وقتل الملل وازدياد الرغبة والقبول وخلق لغة حوار بعيدا عن الخرس الزوجي الذي ينمو مع مرور السنوات، لذا أحببت أنا القراءة من أجلها، واعتادت هي مشاهدة المباريات بل التحدث عن الكرة من أجلى، وهكذا زاد الترابط والتوافق بيننا، فكنا أفضل سندا لبعضنا البعض، وكلا منا آنس وحدة الآخر.
واصل الرجل وعلامات الرضا ترتسم على ملامحه: وهكذا وجدنا الله صابرين راضيين بقضائه، فأنزل علينا رحمة منه تمثلت في حمل يكمل علينا سعادتنا ويضفي لحياتنا بهجة أخرى، والذي يرضى قلبا وقالبا ويشعر بالثقة أن الله سيرزقه فهذا من يراه الله يستحق الرزق فيرزقه، أما من يراه ناقما متذمرا معاتبا غير راضيا فكيف يرزقه، ذلك هو قانون الاستحقاق يا سيدي.

كنت سأنسي أن أخبرك بما تمارسه زوجتي معي في الثلاث سنوات الأخيرة، بعدما سمعت لقاء لخبير في العلاقات الزوجية وهي مازالت مستمرة في متابعة هذه اللقاءات، كانت تقول إن العلاقة الزوجية تعتريها بعض الفتور والممل بعد بضع سنين من الزواج، وذلك بسبب استسلام الأزواج لحياة روتينية مملة، فكانت دائمة التجديد في نفسها وفي تأثيث البيت وتغير شكل الأثاث وأماكنه، وكانت تنقطع عني فترات وتذهب لبيت أبيها المريض وتقول إن هذا من أجل تجديد حبنا لاسترجاع عواطفنا التائهة في زحمة الأعباء والحياة الروتينية، فنعود في شوق ولهفة ونأكل وجبتنا الخاصة في أمتع ما يكون وكأننا عرسانا في

شهر العسل، وكانت تقول : إن الأجازة الزوجية بمثابة إعادة شحن للبطاريات العاطفية التي شارفت على الانتهاء أو أصابها الملل من التكرار والرتابة، فنحتاجها لنكمل فترة أخرى برغبة أقوى وبقدرة أكبر، وقد لا يعمل التلفاز أو الهاتف بصورة جيدة، فنقوم بفصله ثم تشغيله فيعود إلي حالته وكأن شيئا لم يكن، فكنت أشعر بقيمة وجودها وتأثيرها في حياتي، وكنت ازداد لها حبا وتقديرا وعرفانا بدورها وتيقنت أنها كل شيء في حياتي، وأن الله بفضله قد عوضني عن الولد بزوجة كهذه.

ومازال أحمد مشدوها يفكر في أطروحات السائق المتتابعة والتي تبدو على بسطاتها صعبة الأدراك، ومع إدراكها صعبة التنفيذ.

حتى قال له السائق أنه تخرج من كلية التربية في جامعة الأزهر، ولكنه لم يعمل بسبب قانون مزاولة المهن، وقد حدث عدة مشاكل أخرى فآثر السلامة وأبتعد، وأنه قارىء جيد، وقد قرأ هو وزوجته الكثير من الكتب عن الحياة الزوجية والتي ساعدتهم في حياتهم وهذه الكتب مثل (متاعب الزواج وجرعات من الحب والرجال من المريخ والنساء من الزهرة وأسرار في حياة المطلقات وكتب الدكتور العظيم عبد الوهاب مطاوع الذي نحتاج بشدة لآراء واستشارة رجل حكيم مثله في هذا العصر، وكتب أخرى ومحاضرات كثيرة، بالإضافة إلى رواية زوجة أحمد للقدير إحسان عبدالقدوس والتي تقريبا ساهمت جدا في تفكير وعقلية زوجتي).

آه لكم القراءة تحول العقل الخرب إلى عقل مفكر، وتغير حياة الفرد فالمجتمع فالعالم كله، ولكن الإسفاف والابتذال سيطر على عقل الإنسان، والأمور السطحية الساذجة نشرت تفاهتها حتى

أصبح جميع الناس يسعون إليها تاركين ورائهم كل الأشياء المفيدة.

قال الرجل بعدما تنهد: أعلم أنك الآن تستغرب كل الاستغراب وتتعجب كل العجب، كيف لي أن أقول لك كل هذا وليس بيننا سابق معرفة؟ ولكن تأكد أيها الشاب أن البوح للغرباء أيسر كثيرا منه للأقرباء، فالقريب يسمع ليعرف من الذي أخطأ ويلقي باللائمة عليه ويصدر الأحكام، أما الغريب يسمع ليفهم ويكفي أنه يشعر بك ويتعاطف معك ويفهم ما تريد أنت أن تُفهمه، كما أن فعل الفضفضة هذا قد يريحنا أكثر من حل المشاكل.

توقف السائق وأخذ نفسا عميقا وأستعد ليلقي كلمته الأخيرة فقال:
وآخر شيء سوف أقوله لك يا بني: إذا لم تجد نصفك الآخر ذلك النصف الذي يكملك، فإياك أن ترضى بأي نصف آخر، فالرضا بما لا يناسبك هو بداية التعاسة والشقاء.
نزل أحمد والأفكار تتضارب في رأسه حتى أخرج هاتفه المحمول، وفتح صفحة بيضاء في مفكرته وبدأ يسجل خواطره من هذا اللقاء.

****

ذهبت سلا إلى العمارة التي دخل فيها زوجها في السابق حين راقبته ولم تعرف في أي شقة دخل، سألت أمن العقار، دلها، فصعدت بعد أن أخذ رقم بطاقتها كاحتياط أمني، دقت جرس الباب، انتظرت، فُتح الباب بتؤدة وكأنه سلحفاة تتحرك على مهل، ظهرت سيدة، رمقتها في دهشة، أهي أنت؟ قصيرة بدينة كدجاجة يسمّنها أصحابها ليوم معلوم، بملابس البيت، تفوح منها رائحة البصل والطماطم، فقط تشبه من بعيد تلك التي كانت في الصورة مع زوجها بعينيها الواسعتين والشعر المصبوغ، لم تحضّر سلا كيف ستتحدث معها، عمتها مشاعر الغضب والدهشة عن ذلك.

فارتبكت حين سألتها: من أنتِ، فتلجلجت قائلة:

أنا زميلة زوجك رمزي في العمل.

نظرت إليها والدهشة تعقد لسانها، ثم قالت متعجبة بعد أن هضمت دهشتها: وماذا تريدين؟

أريد أن نتحدث في أمر يخص حياتك الشخصية ـ قالت سلا في هدوء وعينيها مثبتة على نوال التي تفرستها بعينيها وتأملتها تأمل النساء حين يرغبن في اكتشاف بعضهن ليحكمن على بعضهن البعض، فالنساء تعشق اكتشاف النساء.

ظهرت الدهشة جلية على وجه نوال، سددت نظراتها إليها، ارتعبت حين مر على خاطرها اكتشاف أمرها، فسألتها مسرعة أن تقول ما تريد.

وهل يجوز ذلك على الباب ـ قالت سلا بلهجة معاتبة، فزاد وجه نوال رعشة وذاد اصفراره.

دخلا إلى غرفة الجلوس بألوانها الباستيل وأثاثها الناعم والذي يرتكز حول شاشة التلفاز ضخمة الحجم وقطع فنية كثيرة، وجلسا متقابلين مترقبين.
لم يتواجد الترحيب بينهما، تضارب الأفكار والمشاعر منع نوال من أن تأتي بواجب الضيافة، سيطر الخوف والترقب عليها، هكذا تقول نظراتها، كما اللص يظن أن أمره اكتشف فيعيش الثواني سنين في انتظار القضاء، أو كمن ينتظر تنفيذ حكم الإعدام، فهو ينتظر بلهفة أن يأتي العسكري بقرار إيقاف الحكم، ولكنه في الغالب يستعجل موته.
لمحت سلا ذلك الخوف في وجهها، لم تمهلها الوقت، سألتها: ما رأيك؟ بعدما ناولتها الصورة.
جحظت عيناها وانقلب الخوف إلى ضعف، أحست بالانكسار وانخفضت عيناها، تبدلت مشاعر الغضب إلى الرغبة في البكاء، لم تنكر ولم تثور ولم تعقب، كما المجرم حين يعلم أنه محاصر وقد تجمعت كل الأدلة ضده، بعضهم يثار جنونه وبعضهم يفقد الأمل ويستكين وعلامات الضعف والانكسار والإحساس بالنهاية ترتسم على ملامحه، خاصة أنها قد علمت أن عشيقها يقوم بتصوير اللقاءات التي تجمعهم سويا بل أنه يملك فيديوهات وصور لمعظم لقاءاتهم، وأمهلتها سلا كل الوقت لكي تجيب، اتسعت حدقاتاها إلى الحد الذي تظن فيه أن عينيها ستنخلع.
من أين لكي بهذه الصورة؟ سألتها وتتمني راجية ألا تجيبها بأن عشيقها قد نشر تلك الفيديوهات والصور.
الموضة الآن تصوير اللقاءات، وكأننا نستخدم التكنولوجيا لكي تفضحنا، وكأننا نستخدم أي شيء لكي يعري عقولنا، ألا تكفي لذة اللقاء!

تواترت على عقلها فكرة نهرها وطردها ولكنها رمقتها بعين وجلة وعلامات التساؤلات ترتسم على وجهها قبل أن ينطق لسانها، وكأن الأفكار خرجت من عقلها إلى ملامحها، كيف لزميلة زوجي أن تأتي بصورة لي مع رجل أخر؟ هل يفرّق زوجي صوري!
من أنتِ؟ سألتها بلهجة خشنة تستوجب الجواب السريع القاطع.
هذا ليس بالمهم على الإطلاق - أجابتها بلهجة واثقة، ثم استطردت، أريد أن أعرف طبيعة العلاقة بينك وبين خالد، وأعدك أني لن أخبر أحدا بذلك.
ليس عندي ما أقوله، هي مجرد صورة مع صاحب محل أُعامله وطلب صورة لإعلان الفائز في قرعة لأفضل الزبائن، لن تعني الكثير وليس لها مدلولات تذكر.
فهمت سلا مراوغتها، قالت بلهجة مهددة:
ولكنها تعني لزوجك الكثير، ثم أني أعرف طبيعة العلاقة بالكامل، وأين قضى خالد ليلته الأحد الماضي؟ وأين سيقضيها الخميس المقبل أثناء سفر زوجك المزعوم، ولماذا لم تكن ليلة الأحد مشبعة.
إرتفع الأدرنالين، تسارعت ضربات قلبها، نظرت إليها بعينين يملؤهما الفزع والدهشة، ذلك الأدرنالين الذي يؤدي إلى إفراز رائحة مميزة عند شعور الإنسان بالخوف، تشمها الكلاب والحيوانات، ومن ثم تقرر مهاجمته، أدى الآن إلى تعرق جبينها، وتجمدها في عين شاخصة، أعلنت ضعفها، أرتعش وجهها، سرت البرودة في كل جسدها، وضعت يديها على وجهها، وأجهشت بالبكاء.
أنا زوجة خالد، وأنا لن أؤذيكِ، صدقيني، - قالت سلا بحنو -

حملقت نوال فيها والفزع يكسو وجهها، منعتها الصدمة من الكلام وكأنها ابتلعت لسانها، واستكملت سلا كلماتها المهدئة: أنا لا أضمر لكِ أي ضغينة، فقط أريد أن أعرف لماذا؟
وساد صمت مفزع به بعض الشهقات وتشنجات البكاء وأنفاس متسارعة لا تسمح بوصول أكسجين كافٍ للقلب أو أوردة الوجه، فأحمر وجهها حمرة داكنة وظهرت كأنها لا تستطيع أن تأخذ نفسها.

نظرت سلا تجاه الصورة على الحائط، وقالت كمن تريد فتح الكلام واجترار اللسان: صورة أبنائكما تقول إنكما في هذا الزواج ما لا يقل عن سبع سنوات.
قاطعتها بأسى والدموع تسيل على خديها: تسع سنوات
رفعت عينيها وكأنها تحاول أن تتذكر أو تتباكي على ما فات: كان بيننا حب كبير قبل الزواج، واستمر لعدة سنوات، بعدها أصبح رمزي يحب عمله أكثر، وقته كله لعمله، يريد تحقيق ذاته وبناء مستقبله، سافر كثيرا، كل فترة في مكان مختلف، أكتسب الخبرة وأكسبني أنا الحسرة، كل شهر أو شهرين في زيارة سريعة، ليطمئن فقط على أحوالنا المادية أما أحوالنا العاطفية لا تهم، فقد كان مستغرقا في أعماله حتى الثمالة.
ثم أجهشت بالبكاء.
كان رمزي في بداية خطواته العملية، فكان يسعي إلى بناء مستقبله، وكعادة الإنسان في هذه المرحلة - مرحلة بناء المستقبل- كثيرا ما تصرعه معركة الحياة، يبذل الكثير من المجهود ويصطدم بالكثير من العقبات ويمر بالكثير من الصدمات، فيكون أول ما يضحي به الرجل في طور بناء

المستقبل وتأمين حياة أبناءه هو بيته، ودون وعى ينسي الكثير من واجباته تجاه بيته، ويتناسى حقوق زوجته عليه، ويتمادى في التناسي حتى يبدأ السوس في النخر في صميم علاقتهما، ومع مرور الوقت يأتي كل هذا على كامل رغبتهما.

بعد لحظات من البكاء الذي ترك أثاره على وجنتي نوال، قالت سلا متأثرة: أنا أتفهم موقفك.
ردت مسرعة: لا، لا أحد تفهم مدى الألم الذي شعرت به، كل إنسان يعاني ألما يعانيه بمفرده، مهما حاول الآخرين التأثر، تبقي هي ثواني فقط يتأثر فيها، ببساطة لا أحد يشعر بألمي لأنه ليس أنا، لقد جربت ذلك مرارا.
أجابت سلا وهي تتنهد: ولكن من كان في نفس المعاناة يكون قادرا على الشعور بألم الأخرين، ثم أشارت لها باستعطاف أن تكمل.
ردت: ماذا أقول؟ أقول إني خنت زوجي، هذا ما تريدي معرفته؟ لا، أريد معرفة كيف تم ذلك؟ ولماذا؟
أجابتها وهي لا تتجرأ على النظر في عينيها، والخجل يضم جسدها وكأنها تتكور على نفسها:
كانت حياتي مثقلة بالمعاناة، وكان ابتعاد زوجي عني لفترات طويلة تعذيبا مبرحا، خلف في نفسي جروح غائرة، لم أقوى على تحملها.
كانت علاقتنا في بداية الزواج علاقة حارة، نشطة دائما، ذات لهفة وشوق دائم، ثم بدأت تفتر لهفته، وبدأ يقل نشاطه في إشارة إلى أن حبه بدأ يفتر، لعبت بعقلي الأوهام ودفعتني إلى أن هناك شريكة لي فيه، تستنفذ رصيدها من وقتي ومن حيويته، وعندما

كنت أواجهه بفتور حبه أو افتعال الحب، كان يقول إن متاعبه تستحوذ عليه وتسيطر على عقله، فلا تبقى لديه طاقة لكي يفكر في متعة جسده مثل السابق، وأن سوق العمل يتطلب البحث والتركيز وكل ذلك من أجل سعادتنا وسعادة أطفالنا، وأننا تخطينا مرحلة المراهقة هذه.
كنت أخبره أن الضجر والملل قد استبد بي، مللت من الزيارات ومللت من التلفاز والسينما و.....
سكتت، وكأنها تستجمع أحزانها لتبثها كلها في كلمة قاضية
وقالت بتؤدة: والأهم أني مللت من الوحدة، ومن برودة وأرق الليل.
ارتفعت نبرة صوتها في آسى وهي تقول: ولكنه كالعادة، إدعى عدم الفهم، وإدعى بأن الجميع من أقاربي وأبنائي وكل سبل الراحة متوفرة لي.
وغرقت في البكاء برهة ثم أكملت:
ثم أصبح لا يعود إلى البيت قبل منتصف الليل، كان يخرج صباحاً ويعود عصرا لتناول الغذاء ثم يقرر أن يجلس معي أو نخرج سويا، أما الآن فيخرج باكرا ولا يعود إلا فجرا، وكأن من الصعب عليه التوفيق بين التفاني في العمل ومتابعة طموحه الشخصي وبين حياته الزوجية.
تنهدت ونظرت إليها في استعطاف ثم واصلت:
كان يرحب بي ترحابا حارا، كان كثيرا ما يلاطفني بالقول ثم بالفعل حينما علم بغياب زوجي الدائم، ثم بدأ الاهتمام يظهر وتوالت الخصومات فالهدايا، توطدت العلاقة بيننا، كلما أتى بصفقة جديدة كان يقدم لي الهدايا، وكان ينظر لي نظرات طويلة وغير طبيعية، ووجدت في عينيه نظرة إعجاب ورغبة لا

تخطئها المرأه في عيني الرجل، توالت النظرات وازدادت، نظرات تحمل الكثير من اللهفة والشوق والحب، ثم صار يغازلني وكان يسدد نظراته المتلهفة لجسدي، ويثني على ذلك الفستان الذي يبرز جمالي وتلك الملابس التي تصغّرني عشرة أعوام لأكون فتاة مراهقة في أوج فتنتها لم تتزوج بعد.

سمعت سلا الكلمة الأخيرة، ترددت في أذنها، فابتسمت ابتسامة ملؤها الحزن ورددت في شرود: لم تتزوج بعد.
أكملت نوال:
صراحة، أعجبت بنظراته الوقحة إلى جسدي، وكلامه المعسول الذي كان يفتنني أكثر من أموال وهدايا زوجي، أشعرني أنني ما زلت أحمل أثار الجمال البائت، التهبت مشاعري وزادت حرارة اشتياقي، كانت اللهفة إلى اللقاء تقتلع جسدي، وزوجي يتعذر بالعمل، وحينما كان يأتي كان يعود مثقل بأفكار ومشاريع تطير عقله بعيدا عننا، حتى إن أداؤه في بعض الأحيان كان يتعثر متعللا بأن أفكار العمل تسيطر عليه، زاد هذا البرود الجنسي، وزاد أكثر بخله العاطفي، فأورثني بعده عني عصبية وحدّة، وحسرة على شباب في أوجّه، والكثير من المشاكل الأسرية تبدأ من العلاقة الزوجية، حتى لو رفض الكثير قول ذلك، طلبت منه أن يمكث بيننا لأنني أحتاجه وسنرضى بالقليل، فرفض ببلادة، متعللا بأنه يريد أن يحقق ذاته، أصابه جنون العمل، نسي أن أهم عملا يقوم به المرء في حياته هو عمله في بيته بين أولاده وزوجته.
تنهدت وقالت: كنت في حاجة إلى أن يلقي لي طرف الحبل ليشدني خارج المستنقع ولكنه قذف بالحبل كله بعيدا، وكان هذا

اعتداءً صارخا على أنوثتي وشبابي، فالوردة تذبل حين لا تسقى، والزهرة تموت حين لا تروى، فكثرت المشاكل وزاد الجفاء بيننا، ولعب الشيطان دوره، ولكل نهاية مقدمات، ومن تعامى عن سوء المقدمات لا يجدر به أن يشكو ضرر النهايات.
تنهدت بغضب ثم واصلت:
استمر التلميح من جانب خالد فترة كبيرة، ثم بدأ بلمسي ووضع يده على جسدي، لم أبد انزعاجا واضحا، كان ذلك بمثابة جس النبض الذي استشف منه أنني .....
سكتت وصوبت نظرها في عينيها لتستدر الفهم ثم أخفضت رأسها...

أومأت سلا برأسها في دلالة على الفهم وعلى شفتيها ابتسامة مغتصبة، كأنها تعالج آلما ما، وعينيها مغمضة وكأنها تبعد خيالات هذه الكلمات عن نظرها.
أكملت بلهجة تبريرية، كمن يسوق الكلام محاولا دفع خجله ويبرئ نفسه:
أنا لست حجرا، أنا لي احتياجات عاطفية مثل كل النساء، أنا ما زلت في أوج شبابي، أنا.....
وسكتت محاولة السيطرة على اندفاعها.
واصلت بحرقة وهي تدفع المبررات دفعا:
حتى حينما كان يأتي كان يقضي غالبية وقته بالخارج مع أصدقائه وربما عشيقاته، أو مع تلك التي يحادثها على الفيس بوك.
كنت أقاسي وحدي لدرجة أنني كنت أتضايق من المشاهد الغرامية التي تعرض في المسلسلات، وكنت أعلم مدى لهفة

خالد، وكنت مثله وأكثر، فقد كنا نحن الاثنين نحوم في نطاق واحد، وهو المتعة والمتعة فقط، وفي وقت ما لم أستطيع تحمل كل ذلك.
وأخفضت رأسها وانخرطت في البكاء.

****

حينما يتضور الإنسان جوعا يسيل لعابة حتى على كسرة الخبز، حتى لو لم يكن يحبها، سيلتهمها، ويحدث أن يتعلق إنسان بآخر

ليس لما هو عليه أو بسبب كينونته الفريدة وخصالة النادرة، بل تتعلق به بسبب ما يعطيك إياه، ما يمنحك تواجده، ما يضيفه لحياتك، فالتعلق والحب مقرون بما تأخذ من علاقة كهذه.
كما أن الكثير من الأعمال التليفزيونية أبرزت دور الخيانة وسهولته وأعطت تبريرات له بل أنها تدفع على ذلك وعلى تمرد الزوجة، وخاصة الزوجة لأن فعلة الخيانة الزوجية من قبل الزوجة لم تكن موجودة على الأقل بكثرة إلا في الأونة الأخيرة.
إنها تلعب على الوتر الحساس والضعيف في العلاقات الزوجية، فتصبح الزوجة لا تسمع الكلام الحلو الذي تستمد منه قوت عاطفتها إلا في المسلسلات الدرامية.
والدراما والسينما الآن لا تركزان إلا على المواضيع ذات الميول الانحرافية، كالعنف والمخدرات والجريمة والخيانة الزوجية خاصة من قبل الزوجة، ذلك النهر النابع من رواية ـ آنا كارنينا ـ، حتى الأغنية في الأفلام والتي كانت تقطر رومانسية، ما عادت سوى راقصة وبجانبها صوت، في انعكاسٍ واضحٍ لما وصل إليه الوضع العاطفي الحالي، وفي إشارة بغيضة بأنَّ الحب أصبح مقرونا في الأساس بالجسد، فما إن ترى ذات الجمال وصاحبة الشعر أو العيون حتى تخر صريعا تحت سكينة هذا الحب المزعوم، كل ذلك يحمل وبالا كبيرا على العلاقات الاجتماعية، فقد دس التلفاز فئران الطاعون داخل البيوت فأصابت الزوجات خاصة والنساء عامة وظهرت البقع القرمزية جلية عليهن وعلى نفوسهن وأرواحهن وتجاوبهن في حياتهن.
تلعب السينما دور كبير في حياتنا ليست فقط في تشكيل الوعي العام، والهاء الناس، وإضافة أفكار منحلة لواقع بائس، بل ضخ

عادات ليس لنا، وإبراز صفات ليست بنا، وبالتكرار تصير طبيعية.
وكثيرا ما تلقي السينما بأفكار وتثبتها وتعززها بالتكرار، تؤثر على حياتنا الزوجية حتى من دون وعيينا، فقد كرست السينما فكرة انشغال الزوجة بالبيت والأطفال وإهمالها لنفسها وعدم الاهتمام بزوجها، مما يعطي له مبررا للخيانة، أو على الأقل تفسيرا لسبب حدوثها، عكست السينما الوضع وبنفس الأفكار، ظلت الخيانة تكبر من قبل الزوج حتى شاعت في الزوجات، ورسخت الدراما فكرة سهولة هذه الفعلة وكثرتها وإعطاء مبرر لها، فكل من لديها مشكلة سواء كانت عاطفية أو جنسية أو مادية أو زوج مغترب أو رجل بسيط لا يعرف في حياته سوى كيف يجلب الرزق لكى يعيش أهل بيته مستورين، تلجأ للخيانة في هدم واضح لكل القيم والأعراف الدينية والاجتماعية، ولك أن تتخيل أن عدد قضايا الخيانة الزوجية المثبتة في محاكم الأسرة في مدة ثلاث سنوات تتجاوز 53 ألف حالة خيانة من قبل الزوجة فقط، وما خفي كان أعظم.

****

أكملت وصوت البكاء وشعور الخوف يكادا يخنقاها:

الجنس حاجة نفسية وبدنية مثل الحب، فإن كانت الحياة الزوجية مثل القارب، والحب يمنعه من الغرق، فإن الجنس يمنعه من الاصطدام بالصخور المختفية تحت سطح البحر، والتي تظهر فجأة فتعكر الصفو فيقوم هو بخفض التوتر والشعور بالراحة ويزيد القدرة على التحمل، مثل تأثير الملح للطعام، مهما كان الأكل لذيذا يظل الملح هو من يعطيه نكهته، هكذا هي العلاقة الحميمة بالنسبة للأزواج، وكلما وضع الملح بالكمية والطريقة التي نحبها كلما أستمتعنا بالوجبة أكثر.
نظرت إليها وهي تهز رأسها نافيةً: أنا لم أقم بعلاقة مع خالد لإطفاء نار الشهوة والمتعة فقط، ولكن بحثا عن أنوثتي وكياني وأنني ما زلت مرغوبة.
بل والانتقام - قالت سلا سرا -
أردفت وعيناها مغرورقتان بطبقة من الدموع: أنأ لا أعرف كيف هي حياتكم، ولكن أنا لم أتعامل مع خالد زوجك الذي تعرفيه أنا تعاملت مع إنسان شعرت معه بسد احتياجاتي، شعرت معه أنه أعطاني ما ينقصني.
سألتها سلا وهي تستذكر حالها وما جرى لها جراء ذلك اللقاء الآثم:
ألم تشعري الذنب؟
أجابت بحدة قاطعة:لا

سكتت قليلاً ثم زفرت تنهيدة طويلة وقالت بصوت خفيض وكأنها تستشعر ألما يسير في ثنايا جسدها..
لقد قضت الرغبة العارمة على الشعور بالذنب.

سكتت هنيهة، تنهدت، ثم واصلت: ثم أتى بعد ذلك الاعتياد، إنه يفقد كل شيء صعوبته، فكما أن الرجل يقع في سحر المرأة التي تشعره برجولته وتشبع فيه الغرور حين تطلبه، المرأة أيضا تذوب في الرجل الذي يشعرها بأنوثتها ويتلهف عليها ويكون شغوفا بها، ولا أمر على المرأة من إطفاء شموع الحب والرغبة التي كانت قد أضاءتها بنفسها.
واصلت وقد امتقع وجهها حتى أصبح كوجوه الموتى: وكما أن الرؤية هي العامل الأكبر لاستثارة الرجل، الأذن لها مفعول السحر لتحريك المرأة.

خرجت سلا وعينيها تفيض فكرا، وتركت نوال في حيرتها، تعالج سكرات الخوف، وذهبت إلى البيت وأخذت الهاتف لكي تصلح ما به، وفي نهاية اليوم هاتفت رمزي.

****

أكتشف الأب ثروت أنه في كثير من الأحيان ومن دون وعي يعامل ابنه يوسف ويتحدث معه بنفس الأسلوب الذي كان والده يعامله به، حتى حينما يقوم بضربه وسبه كان بنفس طريقة والده، وكأنه سيناريو مكرر بنسخة جديدة مختلفة فقط في الأشخاص، ولم يكن سابقا يعي هذا التقمص - تقمص المعتدى- ، كان يظن إنه يقلد والده لأنه يحبه رغم حجم المعاناة التي لقيها معه، كان يقدره ويحبه ولا شعوريا وبشكل غير واعى أراد من يوسف أن يمر بنفس الدائرة ويسلك نفس المسار، ولم يراعى الفروقات النفسية والمجتمعية الحالية، وبدأ يراجع نفسه كثيرا.

وكان ثروت في أيامه الأخيرة يغلب عليه الهدوء، وكان الشيب قد نشر لونه على شعره ولحيته، ونشر تجاعيده على صفحة وجهة، ونشر ضعفه في حركته وكلامه، لاحظ الأطفال ذلك على والدهم، كان لطيفا أكثر من المعتاد، وضحوكا أكثر مما كان، كان يناغي زينب زوجته ويمازحها كثيرا، ويتندر معها وعليها محاولا دفع الرتابة والحزن عنها.
لكنها ما كانت ترى ذلك وما كان يؤثر فيها كل ما يفعله، كانا الطفلين يظنان بأن هذا اعتذارا غير رسميا من أبيهم، الرجل بدأ عليه اتزان ونضج الكهولة مؤخرا، ما زال صوته العالي ينضح بين الحين والأخر ولكن حدته وكثافته قلت كثيرا، وكانا يتمنون أن تعي الأم هذه التغييرات، ولكن زينب لم ترى في ذلك إلا لوثة الخرف أصابته مبكرا، وكانت تندّراته وضحكاته منتهي السخافة بالنسبة لها، بل ترى فيه استخفافا واستطفالا منقطع النظير.
فقد تعودت ألا تحب أي شيء منه، لم تجرأ الفتاة على لومها حين تتحدث سلبيا عن أبيها، كانت تنظر لها نظرة عميقة تنفذ إلى

داخلها، فقد كانت تعلم مقدار الحزن والكره الذي يعتمل بداخلها ناحية زوجها، ولكنها كانت تطلب منها أن ترفق بحالها وحال أخيها، فقد ملا الخناق وتعبا، ولن يستطيعا أن يكملا بقية عمرهما هكذا، وإنه والدهما سيحبانه ويحترمانه مهما فعل.

ومازالت بفعل العادة التي خلقتها بداخلها أفعاله السابقة ترى كل شيء يقوم به خطأ، وتستنقص جهوده، وتلومه في كل شيء وتستكثر عليه أي شيء، لم تكن تنسي أي شيء قام به، وكيف ينسي الإنسان الأفعال السيئة التي تأتي من هؤلاء الذين نخالهم أقرب الأقرباء، وكانت تقول في قرارة نفسها كيف تسامحه على كل ما فات، وكيف تنسي الإهانة والكسرة، وإنها لن تسامحه مدي الحياة، فقد أورثتها تصرفاته الكراهية ولم تنجح في عبور هذا الجسر مطلقا، حتى حينما يمرض كانت تداويه بدافع الشفقة ومن كونه رزق أطفالها لا بدافع الحب أو العلاقة الزوجية.

****

كانت في البداية تتوقع من أكرم أن يطلق زوجته ويتزوجها، أصبحت تنبش في ذلك دون أن تقولها مباشرة، ثم علمت بصعوبة ذلك، وتأكدت منه، فهو لن يستطيع أن يتخلى عن زوجته وأم أطفاله.
فبدأ التوقع يخفت إلى مجرد أمل، وبمرور الوقت غاض الأمل، أورثها هذا حزنا شديدا وبدأت تفكر وتمنت أن تكون له زوجة ثانية، فنصف رجل تحبه أفضل مما تعانيه في هذا العذاب،

وبمرور الوقت ظل الأمل ينكمش شيئا فشيئا وبدأ يخفت تماما حتى طلبت منه أن يتزوجها عرفيا بعدما تتطلق من زوجها، ولكنه لم يوافق كان يريدها عشيقة وفقط، دون زواج ودون أية مسئوليات أو أعباء.
عاشت في دوامة من الحيرة، ماذا تختار، وهل تقبل بأن تكون مجرد حبيبة وفقط؟ بل مجرد عشيقة؟
أحست بأن العالم الوردي الذي كانت تحلم به قد انفجر كفقاعة صابون أو كمنطاد وصل إلى الفضاء وأمعن في السباحة حتى دوى صوت انفجاره مريرا، فانقبضت أساريرها وتبخرت أحلامها كقطرات الندى تحت شمس الصيف الحارقة، وانصهرت في الحزن من جديد، وكانت تغلي في داخلها كأن الجمر يتوقد تحت قدميها.
وهكذا ابتعدت عنه شيئا فشيئا، وصارت ترفض أن تقابله ولم تعد ترسل له صورا أو أي شيء آخر.
ويبدو أن أكرم أهملها هو الآخر، فقد عثرت زوجته صدفة في هاتفه على حواراته ومحادثاته مع زينب، ودبت مشاجرة كبيرة بينها وبين أكرم وآخذت الأطفال معها وتركت البيت إلى بيت أبيها متوعدة أكرم وعشيقته.

لم يوافق سامي على طلاق روفيدا، فقد كان مهرها الرسمي جنيها واحدا لا غير، وكانت تقول إنها سترد له المهر وستأخذ هي العفش والخشب الذي أتي به، والذي كان مكتوبا في قائمة المنقولات، أو ستترك له أشيائه مقابل تعويض كبير بخلاف

المؤخر، وحين أصر على رفضه، ضربت بكلام أصحاب الكلمة والمشورة عرض الحائط، ولم يستطع أحد كبح جماحها، رفعت قضية خلع وصدر فيها الحكم غيابيا.

أخبرتها إحدى صديقاتها التي قامت بخلع زوجها بعد ستة أشهر من الزواج، بسبب العجز الجنسي الذي أصاب زوجها نتيجة تناوله المنشطات والمواد المخدرة بكثرة، كان قد بدأ في تناول هذه المواد في سنوات المراهقة، وأسرف فيها وبالغ في استعمالها حتى أدمنها تماما، وبمرور الوقت كانت تنهش في جسده، ومؤخرا بدأ آثرها يغزو حياته حتى جعله كعجوز مسن أصابه الهرم، وعندما صارحته بحقيقته قام بتعنيفها وأساء إليها لفظيا وجسديا، وأستنكر كلامها سائلا من أين لها بمثل هذه الخبرة، ثم ضربها ورفض تطليقها وديا إلى أن طردها فجرا بملابس النوم، فرفعت عليه قضيه خلع وكسبتها.

أخبرتها أن الزوجة تستطيع أن ترفع دعوى الخلع دون الاستناد إلى أسباب قوية، فقط تقول إنها لا تريد الاستمرار في الحياة معه أو تبغض الحياة الزوجية بجانبه، ولا يشترط أن تثبت الزوجة الضرر الواقع عليها، أخبرتها أن الزوجة تستطيع كسب قضية الخلع ومن أول جلسة، فقط تتنازل عن مؤخر الصداق والنفقتين، على أن ترد له المهر أو مقدم الصداق، وستأخذ القائمة التي تضم أثاث البيت أي أنها ستتركه على البلاط، وهكذا رفعت القضية.

كسبت القضية، وحكم لها بأن تأخذ قائمة المنقولات من أقرب قسم شرطة، أدرك الرجل سذاجته، فقد كانت قيمة الشبكة عشرين

ألف جنيها مكتوبة في القائمة من حقها، ولكنه بعد الزواج أشترى لها ذهبا يعادل في قيمته قيمة الشبكة المكتوبة في القائمة لكي يرضيها.

رفضت استلام عفش الزوجية أمام قسم الشرطة بدعوى انه غير مطابق للمواصفات الموجودة بالقائمة، به أشياء ناقصة وأشياء مبددة، وأكثر من مرة يتم الذهاب به وترفضه الفتاة لأنه غير مطابق، تدخل المصلحون ولم يقنعوها بقبول العفش الموجود، أعطته المحكمة فرصة أخرى، شهرا إضافيا ليأتي ببقية المنقولات التي أعترض على أجزاء كثيرة منها وأنها كتبت بعض الأشياء ولم تأتِ بها، وكان اللوم يقع على عاتقه فكان يقول إنه لم يكن يركّز في مثل هذه التفاصيل الصغيرة ولم يتوقع أن يصل الأمر إلى هذه الدرجة، ولكن كل هذا هينا أمام الذهب، فقد طالبت به، ذلك الذهب الذي أخذته معها عند خروجها للمرة الأخيرة من بيت زوجها، أخبر الجميع أنها أخذت الذهب حينما خرجت، ووقع عليه اللوم أيضا.

وبدأت روفيدا تشعر بالحنو على هذا المسكين، وتشعر بالظلم الكبير الذي توقعه عليه، وطالبت أمها بأن ترد الذهب له أو أن تعفيه منه رفقا بحالته، ولم تستجب الوالدة كعادتها، ورفضت قائلة إنه من حقها، ورفض الرجل أن يأتي بالذهب، ولم يكن معه شهود يقرون بكلامه، وحُذر بأن المحكمة ستصدر عليه حكما ما إذا لم يسدد قيمة الذهب لها.
وفى أثناء إجراءات الطلاق والخلع ورد قائمة المنقولات زاد قربها من الشاب التي كانت على علاقة به، وتمددت علاقتها على

بساط الأمل في الارتباط، وسارت على جسر الرغبة في البقاء معا.

****

مرت الأيام الأولى لواقعة الخلع طبيعية بل كانت أقرب إلى السعادة، كانت الأم والابنة راضيتان على ما وصتلا إليه، كانت نشوة الانتصار تغمي عينيهما، وبدأت الأيام تمر أكثر ولكنها باتت تمر في ثقل ورتابة، وتحولت الرتابة بمرور الوقت إلى كدر وضيق.

وقد كانت الأم تتقاذفها لوعات شديدة، وكان الألم يحز في نفسها بشدة تتوافق مع شعورها بالذنب، وآه من هكذا ذنب، فقد جعلت ابنتها مطلقة صارت بسببها مستعملة - وفقا لأفكارها وكلامها -.

أما الفتاة فكان يعتريها شعورا كبيرا بالندم، يمزقها تمزيقا، وكانت مشاعر السخط تجاه والدتها تكبر يوما عن يوم، كلما أحست بالوحدة والشوق، لم يكن بهذا السوء الذي تتخيله، لم ترى السوء منه إلا عندما كانت تظهره والدتها، فشعرت أن أمها كانت بمثابة المعول الذي هدمت به حياتها، أو كانت كزجاجة السم التي قتلت بها زواجها، وأستبد الآرق بها وأرادت أن تلتقي بصديقها بمفردهما.

سألها خالد أين ذهبت؟ وماذا فعلت؟ أخبرته أن أحد أقربائها سيزورهما قريبا، يعمل في مصنع لإنتاج الملابس، ويود أن يجلس معه بخصوص صفقة ملابس، وربما تسير الأمور ويكون بينهما عمل مشترك، لم تعجب الفكرة خالد، وأبدي تململا، خاصة أنه لا يعرف ذلك الشخص وتحجج قائلا: إنه يتعامل مع أناس محترمين وبينهما تفاهم، ألحت عليه على الأقل أن يحضر

اللقاء، حتى دون التحدث في ذلك، وافق على مضض، بعدما أبدي صعوبة اللقاء نظرا لانشغاله وقال إنه سيحاول وسألها على موعد الزيارة المفاجئة هذه، فقالت إنها لم تحدد بعد ولكنها ستكون قريبا في خلال هذا الأسبوع.

أخبرها رمزي عن انزعاجه الشديد وقلقه عليها، سألته عن أحواله وعن عمله وعن زوجته، استعجب منها هذه الأسئلة الغريبة عنها، ولكنها قالت إنها مجرد أسئلة ليس أكثر، ثم تطرقت إلى ما هي نهاية العلاقة بينهما، وأبدت خوفها من انكشاف أمرهما، ولكنه تململ من كلامها واستصغر هذا الخوف، وقلل من كل هذا الحديث، وأراد أن يغيّر الموضوع، ولكنها هي لأول مرة من تريد إدارة الحوار بينهما، سألته عن شعوره بعد لقاءاتهما الأخيرة، فهم عذابها وثِقل الأمر عليها، حاول التهرب والتملص من الإجابة، ولكنها أصرت كما لم تصر من قبل على إجابة سؤالها، أخبرها برقة أنه يحبها ويحترمها ويريد سعادتها ولكنها لا تبادله ذلك الحب وتتساءل عن أمور غبية، ثم سكت، وسكتت هي، وساد الصمت بينهما لحظات مرت كأنها سنوات، كل منهما ينتظر ماذا سيقول الآخر، ثم تعذر رمزي بالعمل وهكذا انتهت المكالمة الأولى بينهما.

أرادت سلا أن تلطف الجو بينهما، كلمته بعد دقائق، أخرجت صوتها في تلك الطبقة التي تقطر نعومة وأنوثة، عادت مرة أخرى للتساؤل عن عمله، لم تمهله الوقت ونزلت عليه بسؤال غريب، لم يستوعب السؤال في البداية، شك فيما سمعه، طلب منها في دهشة تكرار السؤال، كررته، سمعه جيدا لكن لم يستوعب، أيعقل هذا؟ أبدى قلقه، وتلعثم لسانه وكأن الكلمات تولي هاربة منه، أخبرته أنها تبرهن له عن حبها، فهذا سيجعل

لقاءاتهم أكثر وبمبرر أكبر، لأن خالد بدأ يشك في تصرفاتي - قالت له- .

ثم قالت له أنها ستخبر خالد بأن ابن عم والدتها الذي يعمل في الملابس سيزورهما في خلال هذا الأسبوع، للتعرف عليه وعمل صفقة بينهما، وهكذا انتهت المكالمة الثانية كما أرادت، حيث أذعن رمزي للفكرة واستهوته بما أنه يعمل في المبيعات، كما أنها ستقربه أكثر من سلا، ولكن ما زال بصيص من قلق يعبث في داخله.

وفي الصباح التالي أخبرته بسعادة مصطنعة بالموعد الذي يلائم خالد والذي أخبرها به، ولكنها اصطنعت الحيرة في أمر ما حتى يسألها عنه، وكان ذلك الأمر أن طلب خالد منها أن تأتي أنت وزوجتك، في لقاء ودي أكثر منه لقاء عمل، فنحن أقارب ويريد أن نتعارف أولا، ثم يأتي بعد ذلك العمل، بدت الحيرة جلية في صوت رمزي، كيف يذهب مع زوجته لبيت عشيقته، سألها ما وقع هذا الأمر عليها، أبدت استيائها ولكن ليس هناك حل آخر، وأنها ستحاول تقبل الأمر حتى ينتهي هذا اللقاء سريعا ثم يأتي بعد ذلك وحده.
سألها وبصيص من القلق يكبر وينمو بداخله، ألم يسأل زوجك عن قريبك هذا الذي ظهر فجأة، أخبرته: أنه لم يتعرف على معظم أقاربي لأمي، وأن من تعرف عليهم لو قابلهم في الطريق لن يعرفهم، وأخبرت خالد أنك كنت تعمل في الخارج ولم تأتي إلا من فترة قريبة.

قاطعت حيرته وأمطرته بوابل من التساؤلات عن زوجته، اسمها ولونها وشكلها وصفاتها، لم يجب دارت بخلده تساؤلات أخرى، كيف سيتظاهرون بالقرابة أمام زوجته، وكيف ستتصرف سلا مع نوال زوجته، قالت له ألا يقلق، ستصير الأمور طبيعية، مجرد ترحيب وتساؤلات عن الصحة والأولاد والعمل، طلبت منه ألا يأتي بأولاده، تعجب منها، هل تعلم أن لديه أولاد، لم يحادثها في ذلك قط، ذاد القلق ولم يسطتع أن يهضم تلك الفكرة، حاول إثناءها عن كل تلك القصة، ولكنها رفضت بقوة وحدّة ما كانت تظهر عليها من قبل.

ثم غازلته محاولة جر تفكيره بعيدا، وسألته ثانية عن زوجته، وصفها لها كما رأتها في البيت ولكنه كان يستخدم عبارات توحي بالاشمئزاز، كقوله: تخينة كالبرميل، دائما برائحة البصل والطبيخ، بشعر مجعد وكأنه لا يسرح، وقال متنهدا كانت مرحة تفيض حبا ثم أصبحت عصبية حادة المزاج كثيرة الصياح، مثيرة للمشاكل، تدقق في كل شيء، دائمة التأفف ودائمة الشكوى من البيت والأولاد.

أرادت سلا أن تسأله عن سبب ذلك، وهي متأكدة من كونه صاحب الدور الأكبر في كل تغيراتها، فقد يتغير الرجل بسهولة أما الأنثى لا تتغير إلا بأسباب قوية، كما أن إهماله البيت ورمي بثقل كل المسئوليات عليها له دور في ذلك، ولكنها أجلت السؤال حتى يفضي بكل ما في نفسه.

واستطرد:

إهمال المظهر داخل البيت، فلا قيمة للجمال دون الاهتمام بالمظهر، ويتساءل وكأنه يستذكر تلك الفتاة الرقيقة الأنيقة الهادئة أين ذهبت، كنا نعشق بعضنا ولكن لا أعلم ماذا جري

وخاصة بعدما أنجبت، كيف تحولت هذه السعادة والحب إلى ما نحن عليه الآن، وهكذا ظل يعدد المبررات التي أعطاها لنفسه وكأنه لا يرغب بالاعتراف أن السبب الأول في جريمته معها هو نفسه، يحتاج الإنسان إلى الشيطان أو إلى إنسان أو إلي أي شيء أخر ليلقي عليه بمسئولية أفعاله، يرتكب الحماقات ويرميها على غيره، لا يستطيع الإنسان العيش دون أعذار - حتى لو كانت واهية - تبرر أفعاله، وتلقي بالمسئولية على كاهل غيره فالإنسان يعيش دائما في دور الضحية أو المجني عليه وفي الحقيقية يكون هو الجاني.

****

إن ذلك الحب الجارف والاستيهام الرومانسي - مهما كان - ما يلبث أن يقل تدريجيا فعند مراحل الحب الأولى يطلق المخ - هرمون فينيل إيثيل أمين PHENYL ETHYL AMIN - وهو من المواد المنشطة والتي تعطيك الطاقة والقدرة حتى تبقى طوال الليل مستيقظًا للتحدّث مع الحبيب، وهذه المواد تدفع على الشعور بالرضا والسعادة والانطلاق، وهذا الهرمون موجود في الشوكولا الأمر الذي يفسر عشق بعض الناس للشوكولا، لما

تدره عليهم من سعادة وراحة ،الأمر الذي دفع خبراء التغذية إلى تصنيفها ضمن لائحة الأطعمة التي تساعدنا على الاسترخاء و الشعور بالراحة والصفاء، وكذلك أي فعل ممتع كقراءة رواية ساحرة أو ممارسة رياضة محببه، ولكن يبقى الحب هو أهم ما يجعل الدماغ يفزر هذه المواد الكيميائية.

ثم ما تلبث هذه المواد أن تقل أو يعتاد الجسد عليها في مدة لا تزيد عن سنواتٍ قليلة، وهذا ما يفسر قلة الحب بعد فترة والشعور بالملل، فعندما يقل إفراز الهرمون، يخبو الحب ويتدثر تحت غطاءات كثيرة كالمسئولية والعمل والتعود، ولكنه بالأساس بسبب عدم شعور المخ بمقدار السعادة السابقة من العلاقة، فالحب عمل عقلي في المقام الأول، وما قد يعيده إلى معدلاته السابقة، هو تجديد أواصر العلاقة العاطفية، فلا نكون ماكينة نسخ نكرر أنفسنا كل يوم، التجدد والبعد عن التكرار والرتابة هما ما يساعدان الحب على الاستمرار ويحفزان المخ لإفراز هرمونات السعادة هذه، وذلك من خلال التغيير والرحلات الترفيهية والقيام بأشياء جديدة، سواء في العلاقة الحميمة أو على مستوى المشاعر باستخدام كلمات الحب والاشتياق والإفصاح عن الرغبة والمشاعر، وعدم استثقال ذلك وقول أننا تخطينا تلك المرحلة أو أننا لسنا مراهقين لنفعل ذلك.

كل هذا وأكثر من أجل تحفيز المخ على إفراز تلك المواد الكيميائية التي تعيد إلى الحب حرارته السابقة، والتي تستحث الجهاز المناعي إلى إفراز الأفيون البشري - أندروفين ب ENDRIPHIN B - المسئول عن الملل والضيق بعد الحب والرومانسية، والتي تؤدي قلة إفرازه إلى اضطرابات في

السلوك والمزاج الإنساني، والشعور بالاكتئاب، وبالتالي القلق وفقدان الثقة وعدم الشعور بالراحة والأمان.
لذلك كانا في قمة السعادة، كما الكثيرين في بداية حياتهما، وبتوالي الشعور بهذا القدر من السعادة، أعتاد المخ على ذلك القدر، أما وقد اعتاد المخ على ذلك القدر فأي انخفاض فيه يؤدي مباشرة إلى الشعور بالتوتر والقلق بل والرغبة في الانسحاب والابتعاد، فالحب معادلة كيميائية طبيعية يخبو مفعولها الطبيعي بعد فترة من الزمن، وليس معني هذا أن الحب يموت والعلاقات تنتهي، بل يتكون حب اقوى وأعمق وأكثر ترابطا بين أشخاص على وفاق وتفاهم وتقبل أو على الأقل معرفة بواجباتهم قبل حقوقهم، ولكي نزن هذه المعادلة ثانية ونعيدها إلى حالة الهيام والرغبة وتدفق المشاعر علينا بتحفيز المخ وهذه المرة من خلال أفعالنا.

****

وفي الفترة الأخيرة كانت سلا بين الحين والآخر تتحدث مع أحمد من خلال مواقع التواصل وتسأله عن حياته وتستقصي أخباره بمحادثات صغيرة لكنها باردة جوفاء، ثم بدأ يسألها عن حياتها وبمرور الوقت بدأت تخبره عن سعادتها الزائفة ثم حزنها الدفين، ثم ألمحت له عن علاقة أخرى في حياتها ولكنها لم تحكي له باستفاضة، فلم يتحرى عن شيء ولم يطلب منها الدخول في هذه التفاصيل الشخصية.

وعلمت أنه بدأ في الكتابة، حلمه الذي كان يخطو بداخله أثناء الجامعة، صار يهرول على الورق الآن، وعلمت بموضوع الرواية، فشعرت أنه يكتب تحت تأثير رفضه من قبل والدها، فقالت له لو كنت تزوجت لغيرت موضوع الرواية، فصعوبات الزواج لا تعد مشاكل تجاه ما يحدث من متاعب في الزواج.

وبدأت تسأله عن تأخره في الزواج فقال لها في هذه الأحوال الاقتصادية أصبح الزواج رفاهية لن يقدر عليها من لديه حلم وهدف، إما أن يؤجل الزواج قليلاً أو يتخلى عن كل أهدافه ورغباته.
فقالت له متعجبة لن تتزوج وسط سيل العرى هذا وانفجار الغرائز واندثار الأخلاق.
فقال إنه تزوج الكتابة هذه الأيام، ولا يفكر في الزواج من غيرها إلا حينما ينتهي من عمله، فالكتابة تستنفذ كل طاقته النفسية والذهنية بل وحتي البدنية.
فسألته وهل ستكتب بعد هذا العمل فأجاب بنعم فقالت إنك بذلك لن تتزوج أبدا وستظل طاقتك النفسية والذهنية بل وحتى البدنية مشغولة في الكتابة، فأجاب بإن العلم عند الله، ولكنه لا يفكر بعدم الزواج مطلقا بل لا يفكر في الزواج في هذه الفترة فقط، حتى تستقر حياته أكثر وتخرج مولودته الأولى كاملة من رحم أفكاره، وأن هناك الأشياء الكثيرة التي يرغب فيها ويحلم بها والزواج يعد مقبرة الأحلام في هذه البلاد، لذا لن يشغل عقله به هذه الأيام فليأتي على مهل، ذلك أن الزواج أصبح مأساة في هذا الكوكب، خاصة مع بشر كالذين نحيا بينهم.

****

لم تكن زوجة أكرم تشعر إلا بأن زينب اعتدت عليها وأخذت زوجها منها فدخلت الحرب متسلحة بأداة التشهير والفضيحة، لذا بحثت واستقصت عن كل المعلومات اللازمة، وهكذا ذهبت إلي ثروت زوج عشيقة زوجها تخبره بما تفعله زوجته من وراء ظهره.

تدور وتنتشر الأخبار في الشارع أن أحدا أصبح لا يري ثروت في العمل أو على القهوة، وكالعادة كان أحمد أخر من يعلم، كانت أمه بمثابة نشرة أخبار متنقلة، جميع النساء في المناطق الشعبية تقوم بذلك، متابعة حية لكل نشاطات أفراد الحي، حتى لو أن واحدا قد عطس تعرف النساء سبب عطسته، كان أحمد يتعجب كثيرا من ذلك ويقول لوالدته: ثمة لذة غريبة في معرفة أمور الأخرين، وكأن هذه اللذة تعوض فراغا ما في عقول بعض النساء، ولكنها لم تكن تحدثه عن ذلك إلا حينما لا تجد سيدة أخرى تجاذبها أطراف الحديث في هذا الشأن.

زوجته لا تدري أين هو، ولاحد من جيرانه شاهده منذ يومين، كان ثروت قد اعتاد على الغياب عن البيت في السابق لذا لم يكن هناك داعي للقلق.
ادعت الزوجة للمقربين منها أنه خرج بعد المشاجرة الأخيرة والتي كانت بسبب معرفة الزوج العلاقة بينها وبين أكرم السائق في الحي المجاور التي كانت قد عرفته من قبل واتفقا على الزواج بعد محاولة لخلع زوجها.
وكيف قامت زوجة أكرم بالذهاب إلى مقر عمل ثروت، وأعلمته بكل شيء وأرسلت له الصور الفاضحة لزوجته والتي كانت ترسلها لأكرم وأرسلت له محادثاتهما وكلامهما المتواصل، كان هذا شرطها الوحيد لكي تعفو عن أكرم وتعود لبيتها، وتعود المياه لمجاريها، ولم تثق في أكرم ليقوم بهذه المهمة، بنفسه لذا قامت بها بحماس منقطع النظير، ودون خجل، وبإضافات أنثوية معتادة دائما وكأنها الشطة تضيفها الأنثى إلى الحوار لتهلب المستمع.

فأثار ذلك في نفسه، وهاج وماج وفقد أعصابه وضربها وخرج الصوت يدوي إلى بيوت الجيران، ولم يجرأ أحد على الذهاب إليهم سوى إحدى السيدات جارتهم التي تدخلت بينهما كثيرا في السابق فنهرها ثروت وطردها قبل أن يغلق باب البيت في وجهها.

****

أخبرته أنها ما عادت تربطهما صلة ولا يوجد بينهما كلام، ولكن هيهات هيهات، فما إن يفقد الإنسان أعصابه، يتحول إلى حيوان لا يفقه شيء ولا يريد سوى الوصول إلى مبتغاه حتى لو كان فيه هلاكه.

وصعد الصوت أكثر وذاد الصراخ وصوت الشد والجذب والركل والخبط يرتفع. ثم فجأة انعدم الصوت وسكت المتكلم وعم الهدوء كأن شيئا لم يكن.

وعلى الجانب الآخر وكلاهما يوسف وبسنت أصبحا يفضلا البقاء قدر الإمكان خارج البيت، بعيدا عن كل هذا التوتر وهذه الأجواء المسممة المشحونة، فحياة الأطفال في بيت جدرانه من الكراهية وسقفه من الحقد وأثاثة من عدم التفاهم وماءه من العنف وملذاته في الخناق وهواياته التراشق بالألفاظ أكثر جرما من بيت في حالة طلاق، وقد يكون عدم الامتلاك أفضل من امتلاك مشوه.
وترى هل الطفل الذي يعيش في بيت يعج بالمشاكل الأسرية أفضل أم الطفل اليتيم؟

****

تترك زينب_بيتها وتغادره بعدما تركت طفلاها مع والداتها، يختفي الزوج فجأة ثم تلحقه زوجته فجأة تاركين خلفهم الأطفال.

الباب مغلق، الزوج متغيب من فترة، الزوجة تترك البيت وكأنها تفر، الأولاد مع جدتهم، لا تسير الحياة بطريقة متوقعة أو مفهومة في كافة البيوت التعيسة، فإنما أسبابهم للتعاسة كُثر، ككثرة طلقات الحرب تنطلق محدثة دويا كبيرا وإصابات بالغة.

****

خرج الجميع في زيارة لخالتها المريضة في البلدة المجاورة بإستثناء روفيدا، أدّعت المرض والصداع لتبقى في البيت وحدها، ثم دعت عشيقها إلى البيت مطمئنة، سيكون اللقاء أكثر حميمية في غرفتها، وعندما جاء العشيق وتأكد من أن أحدا لم يره، دخلا الغرفة وبدأ اللقاء سريعا، وفجأة أحست بصوت

صرير وشعرت بأن أحدا يتحرك داخل الشقة، وعندما لملمت نفسها وأعادت ترتيب ثيابها خرجت من الغرفة بمشية متعثرة متخبطة وقد غلقت الباب خلفها بعنف ناتج عن سرعة واندفاع في الخروج، لاحظ الأب تعثرها وتخبطها ولمس الذعر في عينيها وأراد أن يدخل الغرفة فمنعته، وأصر على ذلك فقام بدفعها أرضا، وفتح باب الغرفة ونظر ولم يجد شيئا، فدخل الغرفة ونظر خلف الباب، وأطلق زفرة مندهشة وظهر المفاجأة على ملامح وجهه، ولم يكمل سبته التي وجهها إلى الشاب حتى ضربه على رأسه بمزهرية فارغة فسقط على الأرض شبه مغشيا عليه، وأكمل الفتى بضربات سريعة ومتفرقة، ونظرت روفيدا إلى والدها تحته لا يصد ولا يرد، فقامت بدفعه عنه، وأمطرته بوابل من السباب الممزوج بالبكاء، فكتم نفسها وأجبرها على الخضوع وهددها إن قالت حرفا واحدا مما حدث سيفضحها وينشر صورها العارية والفيديوهات التي بينهما وسيقول إنها شريكته في كل شيء، وأخبرها أن تعود لرشدها فالحي أبقى من الميت.
وقال لها إنه سيخرج ثم تصرخ وتولول وتقول أن لصا قد دخل الشقة وشاهده والدي فضربه على رأسه وخرج.

******

إنقضت أيام والحزن لا يخفت بل يزداد ، صارت روفيدا تعيش في سياج من الحزن بعيدا عن نظرات الآخرين وهمساتهم، وقد كانت النظرات في عين معارفها والهمسات تؤلم النفس وتدمع العين وتأجج مشاعر الحزن بداخلها، فذبلت زهرة حياتها قبل أن

تتفتح، وصارت تجلس فترات طويلة وحدها وفى شرود تام وهي تعض شفتيها من الغيظ، كانت تنظر لأعلي محاولة أن تكظم غيظها، تعض على أسنانها محاولة إخفاء مشاعر الغضب، خوفا من أن تصرخ وتبث ما يعتمل بداخلها من حزن، أما الدموع فكانت تنهمر بشدة من مآقيها، حتى من دون أن تعي ذلك، ولا تنام الليل حتى أصبحت لا تقو على الحركة وانتشرت الهالات السمراء تحت عينيها.

وكانت بين الحين والآخر تغتصب الابتسامات لتوهم الناس بعدم الحزن والجلد، ولكن عيناها كانت ذابلتين ووهجها مطفأ، تغزو حمرة البكاء عينيها، وسواد السهر ينتشر تحتهما، كانت حينما يشتد عليها الحزن تثور لأتفه الأسباب في وجه أمها، ثم تقطب جبينها وتشرد عينيها كأنها سرحت في الذكريات.

****

وعلى جانب آخر من مصائبها المتوالية جلس أحد أًصدقاء سامي معه وهو متلعثم لا يدري ماذا يقول، فأخرج من هاتفه كارت ميموري وفتح هاتف سامي ووضع الكارت فيه وقال له عليه أن يرى الفيديو الموجود به وعندما علم بمحتوى الفيديو رفض إكماله ولكن صديقه الح عليه قائلا: هذا الفيديو يتعلق بالشرف، ركز في الفيديو علك تجد الحقيقة، وتركه وخرج دون أن يخبره من أين عثر على هذا الفيديو كما طلب منه صديقه الذي أعطاه له، والذي هو جار روفيدا التي كانت قد رفضته مسبقا وعلم بعلاقتها مع الشاب الآخر وعثر على هذا الفيديو بعد سرقته من هاتفه.

وبدأ سامي في النظر إلى الفيديو بعين وجلة وقلب مضطرب تدق في داخله طبول الخوف، فقد فهم مغزى كلمات صديقه، وربطها بالرسائل السابقة، أستجمع قواه وبدأ في التركيز لم تكن الجودة جيدة، ولكنها كانت كافية له ليرى الحقيقة.

لم يكن يشغل عقل سامي بعدما علم بحقيقة زوجته إلا أمرا واحدا، البنت، أهي حقا ابنته؟

لم يكد الخبر ينتشر ويتطاير بين الناس إلا سمعت به روفيدا، ولم يكد يصل إليها زوجها حتى علم إنها خرجت إلى حيث لا يعلم أحد، أخذت بعض ملابسها وأموالها والبنت الصغيرة وهربت، فوقع الخبر عليه كالصاعقة.

وذهب إلى قسم البوليس مزودا بالفيديو راغبا في العثور على ابنته، أو هل هي حقا ابنته؟

****

تم القبض على زينب واعترفت بكل شيء، فبعد خروجها من البيت شم أحد الجيران رائحة عفونة تخرج من شباك بيت ثروت، وتحدث مع الجيران في ذلك وتأكدوا من وجود هذه الرائحة العفنة، وحاولوا فتح الباب واستطاعوا بعد معاناة قادتهم إلى كسره، وعندما دخلوا بحثوا عن سبب هذه الرائحة وإذ بهم يجدوا ثروت ملطخا بالدماء وسكينا تستقر في جانب صدره الأيمن.
قصّت زينب في النيابة كيف قتلت زوجها، دون عمد ودون وعي بل دفاعا عن النفس، وبدأت بسرد كل شيء من البداية، فحكت عن علاقتها مع أكرم منذ الحب القديم مرورا بالتعرف عليه من جديد وأحاديثهم على الواتس أب التي أعادت لها الحب القديم إلى أن وصلت إلى ما قاله لها زوجها قبل حادثة القتل مباشرة، حيث قال أن زوجة أكرم أتت له وأخبرته بكل شيء وأعطته الصور التي كانت قد أرسلتها لأكرم، وعندما علم وتأكد من حقيقة الأمر جاء إليها مسرعا ولم يكن أحدا في البيت سواهما.

أغلق الباب بعصبية شديدة وذهب إليها وعينيه تفيض بالشرر، ثم سألها عمن يكون أكرم هذا الذي ترسل له صورها، تلعثمت ولم تدري كيف تجيبه، وهو يسبها ويتوعدها بالقتل والموت، تمالكت نفسها وأخبرته أنه لا يربطهما شيء، وأنها ما عادت ترسل له صورا أو أي شيء آخر، فصفعها على وجهها عدة صفعات متتالية وغير مركزة وهى تحمى وجهها بين زراعيها، حتى أمسك شعرها وجذبها منه إلى أن أسقطها على الأرض وركلها بقدمه في بطنها وهى تحاول أن تفر منه، وفى النهاية تمكنت من دفعه بقدمها، فبعد عنها حتى قامت وصوت صراخها يهز أرجاء

البيت، وذهبت إلى الباب تحاول فتحه ولكنها لم تستطع لأنها لم تجد المفتاح في مكانه، ففرت قبل أن يصل إليها ودخلت غرفة النوم ولكنها لم تسطيع أن تغلق الباب عليها إذ قام بدفعه بكل قوته وطرحها أرضا ثم قفز يحاول أن ينقض عليها، ولكنها قامت قبل أن يصل إليها، ولم ترى أمامها سوى السكين الموجودة في طبق الفاكهة على الكمود، فوقفت بجانب الكمود بعد أن مسكت السكين ولوحت بها في الهواء لتخيفه علها تستطيع أن تهرب منه، ولكنه عندما قام وأستدار وأصبحا وجها لوجه أقدم عليها في ثورته الشديدة وكأنه لا يرى السكين في يدها، فهجم عليها كما الثور الهائج وقام بخنقها حتى كاد يقتلها وهي تدافع بيد واحدة والآخرى تمسك بها السكين التي اضطرت إلى ضربه بها في جنبه الأيسر، فأفلتها وقام بلطمها بأقصى قوة لديه حتى سال الدم من أنفها، وهنا دفعت السكين دون وعى في صدره، ليسقط قتيلا دون أن ينبث ببنت شفة.

ثم جرته ووضعته تحت السرير وتركته لا تدري ماذا تفعل، وفى اليوم التالي بدأت تشم الرائحة ولذلك تركت البيت وحاولت أن تصل إلى أحد أقاربها في الصعيد.

ظلت سلا ساهرة ولم تعرف إلى النوم سبيلا، تفكر وتخطط كقائد ليلة معركته الحاسمة، وضعت جميع الخطط والأفكار ثم بدأ الاطمئنان يخدر عقلها فنامت.
وجاء النهار مسرعا وبدا الوقت يمضي قدما نحو المساء، وقد أبلغ رمزي سلا بساعة قدومه، كان الجو خريفا، عاصفا مكفهرا يبث صوتا غليظا يملا الوجدان قلقا ورهبة، والغمام متكاثف بشدة حتى تظن أنه هو الذي يحجب نور القمر، وأوراق الشجر تتناثر وتهوي وتصدر فحيحا يضيق له القلب.
وكان خالد قد أتي ولم يغير ملابسه لكنه انشغل في التلفاز متململا، وقررت هي أن تخبر أحمد بكل شيء وتركت له عدة رسائل تخبره فيها كيف كانت حياتها طوال ثلاث سنوات وتخبره بما تنوي فعله، وكيف قادتها الظروف إلى ذلك وطلبت منه أن يغير موضوع روايته أو على الأقل يضمّنها المأساة التي عاشتها والفضيحة التي لحقت بها والجريمة التي سترتكبها مع تغيير الأسماء، وظلت تكتب كثيرا، وعندما علمت بقدوم رمزي وزوجته وطريق النجاح الذي تسير فيه خطتها قررت أن ترسل بكل ما خطته يدها إلى أحمد.
وجاءت الساعة المنتظرة ودق جرس الباب، ودق أكثر جرس قلبها الذي جعلها تتهدج ويظهر الاضطراب عليها، تمالكت نفسها وذهبت هي لتفتح الباب، وقام خالد في تململ لاستقبال الضيوف، سلمت على رمزي كما الخطة المرسومة، وقدم رمزي نوال زوجته إليها وأظهرت شيئا من الاندهاش تجاه نوال التي وجمت وارتسمت على وجهها الحيرة والدهشة ثم أخذتها في سلام حار تغمره القبلات والأحضان ونوال مطرقة تفكر.

ثم تقدما بصبحة سلا التي أغلقت الباب بالمفتاح، وقد تقدم خالد نحوهما فقدمتهم جميعا إلى بعض، وسلم خالد على رمزي في حين فجعت نوال حين رأت خالد وارتعدت أوصالها وأطرقت إطراقه لا تتخللها حركة وكأنها جمدت بعين شاخصة وفم نصف مفتوح ووجه يكسوه الفزع المصحوب بالدهشة، لم تقدر على الكلام، أنتفض خالد وتصلب واقفا يردد نظره بين زوجته وعشيقته وهو مشدوها، وتساءل في نفسه ما هذا الذي أري ثم إلتقط أنفاسه وحياها بصوت خافت متهدج، أما نوال وقد أمتقع لونها فارتعدت شفتاها ولم تنطق ببنت شفة واكتفت بإيماءة مضطربة، وتحت نظرات سلا المراقبة قدمت له يدا مرتعشة وتصافحا بعينين يكسوهما الذهول، وكلاهما يتمني أن تنشق الأرض وتبتلعه، ومرت ثواني قليلة كأنها سنين عديدة، تلفت فيها أعصابهما وبدا الاضطراب واضحا عليهما، أما خالد فقد أمطر جبينه عرقا، وبدت نظرات رمزي حائرة وتائهة وقد أحس باضطراب زوجته، ولكنه أرجعه إلى المفاجأة وعدم تقبلها فكرة قريبته التي ظهرت فجأة.

جلسوا وكل منهم لديه اضطرابه الخاص، وافتتحت سلا الحوار بعدما قدمت لهم العصير وقد قال لها خالد متعجبا أين العشاء؟ فقالت ريثما يستريحا أولا ويلتقطا أنفاسهما، وقد شرب الجميع وظلوا يشربون دون أن يشعر أحدا بالارتواء.

لم يسد بداية اللقاء سوى التوتر، توتر خفي من جانب خالد، وتوتر مبالغ فيه من جانب نوال التي انتابتها دهشة شديدة واضطربت أنفاسها وعلا صدرها وهبط في سرعة عداء، كبتت هذه الثورة ولكنها كانت واضحة عليها وينضح بها وجهها الذي احمرّ واصفرّ وشحب وتعاقبت عليه جميع الألوان كأنه قوس

قزح، وتحول شعور رمزي بالارتياح إلى توتر وتعجب مما بدا على زوجته من تغير وطفق يحثها على الاتزان بالنظرات تارة، وأخرى بخبطات قدمه بقدمها.
وساد اللقاء انطلاق من رمزي في الحديث وإسهاب في الشرح، ولم تكن تشاركه سوى سلا التي بدأت عينيها تبدي أعجابا بهذا الدور الرائع الذي يمثله رمزي، وكان ينظر إليها في ابتسامة هادئة غريبة لم يرتاح لها خالد ولم تفهمها زوجته ولكن سلا فهمت منها أنه راضي عن نجاح خطتها، أما زوجته فكانت على حالها واجمة صفراء وعينيها منخفضتان وذابلتان وضعت يديها على خديها وهي في قمة التفكير وسابحة في خيالها، ثم وعت هذا الاضطراب البادي عليها فأخفضت يديها وبدأت تبادلهم الإيماءات والنظرات.

في حين أطرق خالد في خياله يفكر كيف قاده الحظ لمثل هذا الموقف اللعين، أتكون عشيقته زوجه ابن عم والدة زوجته، وكيف قالت أنّ رمزي هذا كان مسافرا ولم يأتي إلا من فترة قليلة، وهو يعرف نوال مذ فترة طويلة وكان زوجها متواجد في غالب الأوقات.
يطرق ويهز رأسه من كثرة الأفكار الواردة وهو يجول بعينيه بين ثلاثتهم ثم ركز على رمزي وقال في نفسه: يغيب ثم يأتي ثم يتغيب فترة ويمكث أخرى، وظل الوضع هكذا حتى ذهبوا إلى طاولة العشاء.
جلسوا متقابلين كلا أمام عشيقه، كاد الجميع أن يختنق من التفكير والنظرات الفاحصة المتسائلة وكلا منهم يسترق النظر للثلاثة الأخرين في صمت مهيب.

ألقى خالد نظرة خاطفة على زوجته ثم عشيقته ثم سدد نظراته إلى رمزي وعينيه تفيض بالتساؤلات ثم قال بلهجة مناورة:
لقد قالت سلا أنك كنت مسافرا فأين كنت؟
فتعجبت نوال وسددت نظراتها باتجاه عشيقها ثم زوجها وانتظرت الإجابة، في حين أن سلا بدأت تفهم ما يعتمل بداخل خالد.
قال رمزي :كنت في دبي
فلاحقه بسؤال آخر جعل الخوف يشق طريقه إلى قلب الثلاثة : وهل كانت المدام معك؟ وراح يراقب وجه سلا بطرف عينيه.
أجاب متلعثما بالإيجاب ثم بالنفي ثم تدارك نفسه وقال إنها كانت معه ثم رجعت وبقيت في مصر ولم يقدر هو على الابتعاد عنها فعاد من أجلها.
فقال رمزي ضاحكا :يبدو أنك تحب زوجتك كثيرا.
أجاب رمزي في ابتسامة مغتصبة :وكيف لا أحبها وهي أم أطفالي.
ثم نقل رمزي نظرته إلى نوال التي كانت تجلس خائفة حائرة منكمشة كفأر مبلول وقع في المصيدة وقد اغتصبت ابتسامة يكسوها الخوف والفزع.
وأنتاب رمزي قلق مفاجئ من نظرات خالد إلى زوجته، وأنتابه قلق أكبر حين فكر في سؤال رمزي عندما سأله عنها.
ساد الأجواء صمت مفزع كأنك تسير ليلا بين القبور، وبداخل كل منهم بركان على وشك أن يثور، وهنا قالت سلا أنها أعدت لهم مفاجأة بعد الأكل، فوقع الكلام على نوال وقوع الصاعقة فأربد وجهها وتغير وسددت إليها نظراتها التي كادت تخلع رأسها من رقبتها، وأحست نوال أنها ستواجه الفضيحة والخزي،

وجال خالد بنظره بين نوال وسلا وبدا الشك الذي يطفح به عقله مرسوما على وجهه وعيناه المتسائلتان.
أنفضت المائدة وقد انشغل كل منهم في الطعام ولم يحاول أحدا منهم أن يفتح حوارا سوى ترحيب سلا المتواصل وتقديم الطعام وحثهم على الأكل، حتى جلسوا يتناولون الفاكهة.
نظرت سلا في عيون خالد المرتابة وقالت لقد حان وقت المفاجأة التي أعدها القدر لنا، وهي تصوب نظراتها إلي نوال والتي أفلتت أعصابها منها يداها ترتعش وجفونها ترتجف وشفتيها ترتعد وبدا الارتباك واضحا في عينيها ورعشة جسدها وتهدج صدرها وتلعثم لسانها وضربات قلبها التي تصفعها صفعا وتوخذها وخزا.
وهنا بدأ الجميع بالارتياب والشك، لمعة غريبة في عيني رمزي وكأنها لمعة الفهم، الترقب المرسوم على ملامح خالد بدأ يرسم ما يجول في خاطره، نوال والقلق يخنق أنفاسها وكأنها مست من شيطان، وبدأ الأربعة يتجولون في عيون بعضهم البعض، وأمسي الجو مشحونا بالترقب والانتظار، فكان الوقت يمر في تؤدة مميتة، والثواني تمضي بطيئة كالسلحفاة، ثقيلة كالجبال، حادة كالسيف، مرة كالعلقم، خانقة كحبل المشنقة.
ووجهت سلا الكلام إلى زوجها:
خالد، كل شكوكك في محلها، رمزي ليس بقريبي، بل هو عشيقي كما أن نوال عشيقتك، قالت ذلك وكأنها أطلقت سهما من جعبتها فأصاب ثلاثتهم، ثم أردفت وكأنها مدفوعة بقوة لا تقدر على مقاومتها :أيها السادة نحن الأربعة خائنون ليس لأحد منا فضلا عن الثاني، وليس أحدا منا أفضل من الآخر، كلنا سقطنا في بئر الخيانة.

وانهارت نوال في البكاء معلنة حقيقة هذا الكلام، ونظر رمزي إليها في ذهول وجزع، ونظر خالد إلى سلا بعينين تفيض بالشرر، وجميعهم كأنه تخشب وتسمر في مكانه، تملكتهم مشاعر متضاربة ما بين الرغبة في الدفاع عن النفس وما بين الشعور بالفزع مما يسمعون، وقد بدا الإعياء يظهر على خالد.
وأكملت بدورها بعد نظرات متفرقة في الستة أعين، وقد كانت كلماتها كأحجار ترجمهم بها، ووجهت الكلام إلى رمزي وخالد وقالت: أسعيدان أنتما الآن، كنتما دون جوان هذا العصر، لو أعطيتم لزوجاتكما ما أعطيتم لعشيقتكما لكان الوضع الآن مغايرا تماما، والآن تحصدا ما زرعتما، يا لشماتتي بكما، ويا لفرحتي بوضعكما الحالي.
وكانت المفاجأة أشد مما تحتمله أعصاب ثلاثتهم، وكأن الكلمات ذابت في ماء لسانهم وبدوا كأن على رؤوسهم الطير.
وعادت تسأل زوجها وقد بدأ الإعياء يثقل عليه :كيف شعورك يا دون جوان يا الكونت دي فالمون يا.....
فصرخ في وجهها وهو متعثر الأنفاس :أن تصمت

فصرخت فيه وقالت: إنها لن تسكت: وكأنما استيقظ الوحش الشرير في نفسها، فراحت تحكي عن علاقتها ولقاءاتها وتمتعها مع عشيقها، وجن جنونه وحدثته نفسه بان يقوم ليقتلها وينتقم لشرفه ولكن خذلته قواه فوقف بين الرغبة وعدم القدرة يغلي كماء في مرجله.
نظر رمزي إلي نوال وهو يلهث نظرة يملؤها الحزن والدهشة والعتاب والدموع تتزاحم في عينيه فشعرت أنه يؤنبها وهو

يخجل من نفسه، فنكست رأسها وارتعد وجهها وأغمضت جفنيها وانحدرت الدموع على خديها كالسيل.
ثم حدجها بنظرة تقدح شررا، وسألها لماذا؟ كيف تجرئين على ذلك؟
أجابت قاطعة :الحب
الحب - قال بسخرية وأكمل ضاحكا في كمد، أوليس ما كان بيننا حبا؟ ألم تحبيني من قبل؟
نظرت إليه وقد انحصر سيل الدموع وقالت:
إن الإنسان يتبدل ويتلون مع تبدل حياته وتلونها، والإنسان يتغير مع تغير ظروف حياته ومزاجه النفسي، ثم أطلقت تنهيدة قوية حتى لتكاد أن تخرج أحشاءها معها وقالت: الإهمال، الإهمال هو صدأ الحب، وهو القاتل الأول له، بل إن الإهمال هو القاتل الأول لكل شيء كان جميلا.
ثم نكست رأسها وقالت وهي تضغط على نبرات صوتها حتى لا تبدو مرتعشة: والحرمان قد يجعل الفقير يسرق، والشريف يفسق، الحرمان الذي عانيته وحدي، الحرمان كما الفقر يجعل التمسك بالقيم الاجتماعية ضعيف.
قالت متعجبة: الحب، ثم واصلت وبنصف ابتسامة: لقد غرق الحب في بحر الإهمال.

ثم غارت عينيها وأمسكت بطنها توجعا، وقد احتقن وجهها وبدأت ترتجف في تشنجات متتالية، وصدرت منها تأوهات غريق يجاهد في عنفوان الأمواج الهادرة، وبدأ رمزي في التأوه، وكأنه يعالج سكرة الموت، وقد شحب وجه شحوب الموتى.

استجمع خالد قواه ووقف، ثم وثب من مكانه كمجنون فاقد العقل أو كوحش رأى فريسته، ولكنه سقط ولم تنجده قواه ونظر إليها بعينين جاحظتين وقد نال الألم منه، وتلونت عينيه باللون الأحمر القاني.
ونظرت إليه سلا في تشفي وقالت مهتاجة مستعبرة: لقد اكتشفت الآن خطأ ما فعلت، لقد وضعت السم في العصير وفي الطعام لكي نموت وتموت رذيلتنا معنا، ولكنه كان خطأ فادحا، والأفضل أن نعيش في عذابتنا كي نحترق من الألم ونذوب من الخزي وتقتلنا كل يوم نظرات الآخرين وتأكلنا آلامنا النفسية.
ودوي صوتها قويا كمطرقة تدق في قلوبهم، وحاول رمزي أن يقوم ولكن زادت أنفاسه بشدة حتى تعثرت في صدره ولم يتمالك نفسه وسقط في آلامه.
أما خالد حين سمع هذه الكلمات تأوه آهة طويلة توضح ما يعالجه من آلام فطار صواب عقله وأخذ يهيل إليها الشتائم، وظل يكابد الآمه ويحاول الوقوف وتناهض متكئا على إحدى يديه حتى أعياه الجهد ونظر إليها نظرة ذاهله ثم أغمض عينيه وسقط متألما.
أما نوال فأرسلت شهقة مفزوعة، وحدقتها بعينين ثابتتين مذعورتين وقالت في اشمئزاز وهي تتألم: أنتِ مجرمة، قاتلة.
فأجابت سلا بإبتسامة ساخرة :وما الذي يبعث على الجريمة سوى وضع غير سليم، وضع إجرامي ولكنه من نوع أخر.

ونظرت إليهم جميعا زائغة العينين باهتة الضحكة وقالت والحسرة تملؤها :لكل نهاية مقدمات، ولكننا لا ندركها أو ندرك ولا نصدقها أو لعلنا ندرك ولا نعتقد أن الآخر يمكنه أن يفعل ذلك، ثمة غشاوة دائما على أعيننا تجعلنا لا نستفيق إلا بعد وقوع

الكارثة، ولا نراها إلا عندما يراها الأعمى، فالحقيقة كما الشمس النظر فيها يؤلم، لذلك لم ننظر فيها أبدا.
وارتعشت الدموع في عينيها وهي تلهث، واشتدت حشرجة الموت عليها وبلغت أقصاها.

****

قرأ أحمد الرسائل وعينيه جاحظة في ذهول، لم يكن يصدق ما يقرأ، فكان يعيد قراءة الفقرة عدة مرات، حتى علم بكل ما فعلته سلا في حياتها الزوجية.
ووصل إلى أخر رسالة وبدأ يقرأ فيها :إن أي سيدة تفتح حياتها لرجل غريب، ستكون ضحيته، وما لا نستطيع معالجته نحصن أنفسنا ضده وضد ذرائعه، ومن تفعل ذلك ترتاد بحر ملئ بحطام السفن المتساهلة وجثث الغرقى التي أساءت الأمانة، وحتما لن تصل السفينة أبدا إلى الشاطئ، بل ستظل تتلاطم بين الأمواج حتى تغرق، وإن هو إلا حلم ممتع وغفوة لذيذة وسيكون الاستيقاظ بعد ذلك فظيعا.

بدأ أحمد في تدشين كل الأفكار المتناحرة، أحداث كثيرة غريبة مر بها هذه الأيام غيرت الكثير من أفكاره وبدا كأنه يكتب مسودة جديدة وبدأها كالآتي: يوما بعد يوم وعاما تلو الآخر، لا شيء يتغير، لاشي يتقدم سوى العمر، العالم من حولك يسير نحو الانحطاط والإسفاف، والمشاكل لا تحل، إنما تكبر معك وتتناسل، وليس الموضوع سقوط بعض البشر في بئر الخيانة، فالعالم كله يهرول نحو الهاوية، ولكنه سقوط كامل لعالم الأسرة.

" لن تتم "

قراؤنا الأعزاء .. تحقيقاً لحلـــم التواصل بين الكـــاتب والقارئ ودور النشر ، والاهتمام بمعـرفـــة رأيك دائماً ننتظر أن تتـواصل معنا لتقييـــم أعمالنا عبر الإيميـــل ، أو عبـر صفحـــات مواقع التواصل الاجتماعي ، من أجل تحقيق حلم بناء جيل واعي ونثر بذور الثقافـــة بالمجتمع والمناداة تنشئة عقـــول أساسها الثقافة والعلم .

شهرزاد للنشر والتوزيع

E-mail: shahrazadpub@gmail.com
facebook: Shahrazadpub
shahrazadpub2015
twitter: shahrazadpub

للشراء عبر صفحة البوك ستور الالكترونى :

صفحتنا على الفيس بوك : شهرزاد بوك ستور